الإسلام
والأحزاب السياسية

تأليف

فاروق عبد السلام

الناشر

مكتبة قليوب
للطبع والنشر
تليفون ٩٥٦٤٨٨

إهداء

إلى الأخ المؤمن الكريم
الأستاذ أحمد عادل
أهدي هذا الكتاب
راجيا منه النصح في سبيل
الله وعلى الله قصد
السبيل
د. فاروق عبد السلام
١٠ شوال ١٤٠٤هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

من الدستور الإلهي :

" ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين "

صدق الله العظيم

يونس ٩٩

فصـــل تمهيدى

فى أزمة الفـكر السياسى الاسلامى

أزمة للفكر السياسى الإسلامى فى تخلفه قديماً وحديثاً باستثناء عصر النبوة والخلفاء الراشدين .

والنظرية السياسية فى الإسلام بصفة عامة لم تنل من فقهاء المسلمين حظها اللائق بها من الدراسة الجادة والبحوث المستفيضة المتطورة بعكس ما كان منهم فى شتى مجالات المعرفة والفكر الإنسانى الأخرى .

وإذا كان تشخيص الداء لازماً قبل وصف الدواء فإن التسليم بهذه الحقيقة والوعى بها وإدراك ابعادها هو المدخل السليم لبحث المشكلة من جذورها وعلى أساس علمى سليم إذا كنا ننشد الإصلاح بحق لأحوال المسلمين السياسية فى العصر الحديث .

وإذا كان البحث فى أزمة الفكر السياسى الإسلامى فى مجالنا هذا محدوداً ومرتبطاً بموضوع النظام الحزبى : إلا أننا فى البدء نختار لإثارة المشكلة والتعبير عن أبعادها بصدق نموذجاً عاماً وقديماً من فكر الفارابى السياسى .

ثم نعود لصلب الموضوع ومن واقع حال المسلمين المعاصر فنضرب المثل بنموذج خاص وحديث عن الحركات السياسية الإسلامية الحديثة وموقفها من نظرية الحزب .

(١) الفارابى والقول فى مضادات المدينة الفاضلة

يقول الفارابى : والمدينة الفاضلة تضاد المدينة الجاهلية والمدينة الفاسقة والمدينة المتبدلة والمدينة الضالة .

والمدينة الجاهلية فى نظر الفارابى هى التى لم يعرف أهلها السعادة ولا خطرت ببالهم وتنقسم إلى جماعة مدن منها :

المدينة الضرورية والمدينة البدالة ومدينة الخسة والشقوة ومدينة الكرامة ومدينة التغلب والمدينة الجماعية .

والمدينة الضرورية فى تعريف الفارابى لها هى التى قصد أهلها الإقتصار على الضرورى مما به قوام الأبدان من المأكول والمشروب والملبوس والمسكون والمنكوح والتعاون على استفادتها .

والمدينة البدالة : هى التى قصد أهلها أن يتعاونوا على بلوغ اليسار والثروة ولا ينتفعوا باليسار فى شىء آخر لكن على أن اليسار هو الغاية فى الحياة .

ومدينة الخسة والشقوة : وهى التى قصد أهلها التمتع باللذة من المأكول والمشروب والمنكوح وبالجملة اللذة من المحسوس والتخيل وإيثار الهزل واللعب بكل وجه ومن كل نحو .

ومدينة الكرامة : وهى التى قصد أهلها على أن يتعاونوا على أن يصيروا مكرمين ممدوحين مذكورين مشهورين بين الأمم ممجدين معظمين بالقول والفعل . ذوى فخامة وبهاء إما عند غيرهم وإما بعضهم عند بعض كل إنسان على مقدار محبته لذلك أو مقدار ما أمكنه بلوغه منه .

ومدينة التغلب : وهى التى قصد أهلها أن يكونوا القاهرين لغيرهم الممتنعين أن يقهرهم غيرهم ويكون كدهم اللذة التى تنالهم من الغلبة فقط .

والمدينة الجماعية : وهى التى قصد أهلها أن يكونوا أحراراً يعمل كل واحد منهم ما شاء لا يمنع هواه فى شىء أصلا .

وعلى هـذا النحو يستطرد الفارابى فى تعريفاته لمدنه إلى أن يقول فى ملوك هذه المدن :

« وملوك هذه المدن مضادة لملوك المدن الفاضـلة ورياستهم مضادة للرياسات الفاضلة ، وكذلك سائر من فيهـا وملوك المدن الفاضلة الذين يتوالون فى الأزمنة المختلفة واحداً بعد آخر كلهم كنفس واحدة وكأنهم ملك واحد يبقى الزمان كله . وكذلك أن اتفق منهم جماعة فى وقت واحد إما فى مدينة واحدة وإما فى مدن كثيرة فإن جماعتهم كملك واحد ونفوسهم كنفس واحدة » .

ولنا أن نسأل أنفسنا بعد ذلك وبنظرة علمية محايدة دون تحـيز أو تعصب ما الذى أضافته هذه التقسيمات والتعريفات للفـكر السياسى البشرى ؟ وما الذى بقى منها حتى الآن ؟

وهل كان لهـا فى يوم من الأيام أو فى واحد من البلدان نصيب من الحقيقة أو الواقع ؟

وهى لمن ؟ للمعلم الثانى أبى النصر الفارابى . وثراء فـكره فى مجالات المعرفة الأخرى معروف .

ولا يُحتج فى ذلك أو يُرد بقدم الزمان . فأقدم منـه فى الزمان من فلاسفة اليونان أفلاطون وأرسطو ولهما فى مجال الفـكر السياسى نظريات وتقسيمات تعيش بيننا حتى الآن لا يكذبها واقع فى مكان أو زمان وتثرى المـكتبة السياسية إلى يومنا هذا وإن حادت عن الصواب ففى بعض الشىء لا كله .

فقد انتهى أرسـطو إلى ستة أنواع للحـكم الصالح منها ثلاثة وهى الملكية والارستقراطية والديمقراطية المعقولة .

والفاسـد ثلاثة وهى : الطغيـان والأوليجارشية والديمقراطيـة الفاسدة أو الديماجوجية .

ومن قبله تحدث أفلاطون عن الحـكومة المثالية أو حـكومة الفلاسفة وعن حكومة الأرستقراطية الحربية وحـكومة الأوليجارشية وحـكومة الديمقراطية وحـكومة الطغيان .

(٢) الحركات السياسية الإسلامية الحديثة وموقفها من نظرية الحزب

وأهم هذه الحركات الإسلامية الحديثة جماعة « الإخوان المسلمون » فى مصر وحركة « الجماعة الإسلامية » فى الباكستان .

(أولا) الاخوان المسلمون

أهم الحركات السياسية الإسلامية الحديثة من وجهة النظر التنظيمية والعقائدية وأقدرها من حيث الثبات على المبدأ والصبر على المحن والاستمرار على الطريق .

ولكن المحير فى أمر الجماعة سياسياً ويحق هو موقفها من نظرية الحزب . فقد ورد فى رسالة المؤتمر الخامس للجماعة أن الإخوان المسلمين دعوة سلفية وطريقة سنية وحقيقة صوفية وهيئة سياسية وجماعة رياضية ورابطة علمية ثقافية وشركة اقتصادية وفكرة اجتماعية .

وهم هيئة سياسية كما ورد فى الرسالة لأنهم يطالبون بإصلاح الحكم فى الداخل وتعديل النظر إلى صلة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم فى الخارج وتربية الشعب على العزة والكرامة والحرص على قوميته إلى أبعد حد .

وفى سرد الرسالة لبعض خصائص دعوة الإخوان يرد من بينها خاصية : « البعد عن الأحزاب والهيئات » .

كما يرد فى نفس رسالة المؤتمر الخامس أيضاً وتحت عنوان : « الإخوان المسلمون والأحزاب » قول الشهيد حسن البنا :

« إن النظام النيابى بل حتى البرلمانى فى غنى عن نظام الأحزاب بصورتها الحاضرة فى مصر وإلا لما قامت الحكومات الائتلافية فى البلاد الديمقراطية فالحجة القائلة بأن النظام البرلمانى لا يتصور إلا بوجود الأحزاب حجة واهية وكثير من البلاد الدستورية البرلمانية تسير على نظام الحزب الواحد وذلك فى الامكان . كما يعتقد الاخوان أن هناك فارقاً بين حرية الرأى والتفكير والابانة

والإفصاح والشورى والنصيحة وهو ما يوجبه الإسلام ، وبين التعصب للرأى والخروج على الجماعة والعمل الدائب على توسيع هوة الانقسام فى الأمة وزعزعة سلطان الحكام وهو ما تستلزمه الحزبية ويأباه الإسلام ويحرمه أشد التحريم ، والإسلام فى كل تشريعاته إنما يدعو إلى الوحدة والتعاون » .

والدارس المتأمل لما ورد فى الرسالة من فكر للجماعة تجاه الأحزاب مقارناً ذلك بما تطور إليه علم السياسة الحديث يسترعى انتباهه حقيقتان هامتان :

الحقيقة الأولى : نظرة الاخوان للأحزاب السياسية على أنها مجرد أداة لتوسيع هوة الانقسام فى الأمة وزعزعة سلطان الحاكم . مع أن للأحزاب السياسية الحديثة وظائف أخرى أساسية وملحة يصعب إهمالها كما يصعب تحقيقها فى غياب الأحزاب . . وقد تطورت النظرة للأحزاب وتعددت الدراسات الجادة لها على مستوى الفكر السياسى الحديث فى شتى أنحاء العالم . وفى ذلك يقول مارسيل بريلو فى مؤلفه « علم السياسة » .

« وفى العصر الحاضر يعتبر الحزب فى المجال السياسى المثال النموذجى للجماعة المنظمة إذ هو يضم عدداً كبيراً من الاعضاء يفرض عليهم الطاعة والنظام ويخلق قوة تؤول إليها السلطة عن طريق الانتخاب فى النظم الديمقراطية وبواسطة أساليب أخرى فى نظم الحكم الفردى . وتحظى الأحزاب السياسية حالياً بقسط عظيم من الاهتمام ، وقد حباها علم السياسة فى السنوات الأخيرة بالعديد من الدراسات ، كما أنها قد أفادت من الميل للتجديد » .

الحقيقة الثانية : ما ورد فى الرسالة ونصه : « وكثير من البلاد الدستورية البرلمانية تسير على نظام الحزب الواحد وذلك فى الامكان » .

وهو نص يفهم منه إعتقاد الأخوان بأن نظام الحزب الواحد أفضل من تعدد الأحزاب . وأخف وطأة وأقرب إلى روح الشريعة ، مع أن المتفق عليه بين علماء السياسة أن نظام الحزب الواحد أبعد النظم عن حماية الحرية وتوفير الديمقراطية ، وأثبتت التجارب والأيام ذلك ، حتى أن الجماعة نفسها وفيما بعد قاست الأهوال ولاقت فى ظل نظام الحزب الواحد من الظلم والاضطهاد السياسى أضعاف ما لاقته من قبل فى ظل تعدد الأحزاب على فسادها .

وعلماء السياسة على اتفاق بأن نظام الحزب الواحد هو بدعة القرن العشرين وخدعة الدكتاتورية فى العصر الحديث .

ويقول موريس ديفرجيه :

«إن الدكتاتورية تستخدم الحزب الواحد لتقيم به شكلية العمليات الانتخابية والبرلمانية وتعطى نفسها واجهة ديمقراطية».

ولأن موقف الأخوان من قضية الاحزاب السياسية لم يكن قائماً على أساس من فكر سياسى ناضج أو فقه اسلامى مدروس فعند أول امتحان لهم حول ذات المشكلة مشكلة تحديد موقفهم من النظام الحزبى وما إذا كانوا حزبا سياسياً من عدمه وقع الخلاف بين أعضاء الهيئة التأسيسية للجماعة .

وفى ذلك يقول الدكتور ريتشارد ميتشل فى دراسته الأكاديمية عن الاخوان .

« فطبقاً للقانون الصادر فى ١٠ سبتمبر ١٩٥٢ والقاضى بتسجيل كافة الأحزاب تقدمت الجماعة بالفعل بالوثائق المناسبة لوزارة الداخلية وأعلنت أنها إلى جانب الاشياء الأخرى حزب سياسى . وكان من نتيجة هـذا القرار الاستقالة المؤقتة للهضيبى » .

ويؤكد ذلك بقوله أيضاً :

«لا يمكن تفسير استثناء الجماعة من قرار حل الاحزاب إلا بتحولها إلى حزب نتيجة للقرار الذى اتخذته ، وكان ذلك ما اقتنع به الأعضاء».

وحول نفس المعنى وفى مكان آخر من الدراسة يقول الدكتور ميتشيل أيضاً :

« وفى الرابع من أكتوبر اجتمعت الهيئة التأسيسية لمناقشة الموضوع واعترضت الأغلبية على نظرية الهضيبى القائلة بأن الجماعة ليست حزبا سياسياً (وإن لم ينف أن لها دورا سياسياً) وصوتت الهيئة مع قرار تسجيل الجماعة كحزب سياسى وكان الهضيبى الذى غاب عن الاجتماع لدواعى المرض قد قدم استقالته توقعاً منه لقرار الهيئة » .

إلى أن يقول الدكتور ميتشل :

« وفى ١٣ يناير قرر مجلس الوزراء حل جماعة الإخوان المسلمين وحتى يتم استعداد قوات الأمن ويتم احكام السيطرة على الوجه القبلى لم يعلن قرار الحل إلا فى الساعة الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة فى الخامس عشر من يناير ، وقد تذرع القرار بأن الجماعة أعلنت نفسها حزبا سياسياً وبالتالى أصبحت عرضـــة لأحكام قانون يناير سنه ١٩٥٣ بالغاء الأحزاب »

ثم كانت أزمة مارس الشهيرة بين محمد نجيب وجمال عبد الناصر وخلافهما حول الديمقراطية وعودة الأحزاب السياسية . وطرح السؤال من جديد وتعرض الاخوان لنفس الامتحان مرة ثانية وكان جوابهم الرسمى هذه المرة أكثر صراحة فأصدروا فى الصحف تصريحا نشر فى ٢٧ مارس قالوا فيه .

« وفيما يختص بعودة الأحزاب أملنا ألا يعود الفساد أدراجه مرة أخرى فاننا لن نسكت على هذا الفساد بل نؤيد بقوة حرية الشعب كاملة . ولن نوافق على تأليف أحزاب سياسية لسبب بسيط . وهو أننا ندعو المصريين جميعاً لأن يسيروا وراءنا ويقتفوا أثرنا فى قضية الاسلام » .

وعقب سلسلة من الاحداث الميكيافيللية والملفقة وقعت المحنة وكان الاخوان أول من اصطلى بنارها وقاسى أهوالها وراح ضحيتها من كان أعـــلم أهل زمانه بالتشريع الجنائى الاسلامى شهيد الاسلام عبد القادر عوده وله فى ذلك المجـــال أقوى المراجع العلمية وأحدثها وراح معه صحبه الابرار وملئت السجون بالمعذبين وفاضت المعتقلات بالمظلومين وصعدت أرواح الشهداء تخترق الحجب فى عنان السماء تشكو لربها ظلم العباد .

إلا أن ما هو أقسى وأشد مرارة وأدعى للتأمل بالبحث والنظر أن الجماعة لم تسلم رغم ذلك من التعرض للنقد اللاذع من الآخرين شامتين أو ناصحين مخلصين
وذلك بسبب موقفها من قضية الديمقراطية والاحزاب السياسية فذهب البعض إلى تحميل الاخوان مسئولية ما وقع .

يقول صلاح عيسى فى دراسته « الاخوان المسلمون ـ مأساة الماضى ومشكلة

المستقبل ، وهى دراسة قـــدم بها للترجمة العربية لدراسة الدكتور ميتشيل عن الاخوان المسلمين .

يقول صلاح عيسى :

« ومع اعتراضنا الـكامل والنهائى والبات على أى معاملة للافـكار السياسية بالأساليب القهرية بكل أشكالها أو درجاتها ، فان الأخوان المسلمين هى آخر القوى السياسية المصرية التى يحق لها التنديد بالحـكم البوليسى أو رفضه فمثل هذا الحـكم ليس مجرد نزعات فرد ولـكنه ينطلق أساساً من المناهج التى ترفض تعـدد الآراء والاجتهادات فى الفـكر والسياسة وهـــذا هو منهج الاخوان المسلمين أنفسهم الذين رفضوا منذ نشأتهم الحزبية وطالبوا بالغـــاء الأحزاب السياسية بحجة أن الاسلام يدعو إلى الوحدة والتعاون بين الناس بينما الحزبية تدعو للتعصب للرأى وتعمل على توسيع هوة الانقسام فى الأمة وكان العلاج الناجح فى رأيهم هو أن تزول جميع الأحزاب لأنها كلها مقصرة فى تنفيذ أحكام القرآن » .

ويقول الرئيس محمد نجيب فى كتابه « كلمتى للتاريخ » :

« وضح لى تماماً أن جمال عبد الناصر قد اختار فى هـذه المرحلة أن يمضى فى طريق الأخوان المسلمين — وأنه اشترى صمتهم باعادة جماعتهم . . وقد أغراهم ذلك على التهادن كفرصة انتهازية للقضاء تماما على فـكرة عودة الأحزاب والحياة البرلمانية ثم الانفراد بالسلطة بعد ذلك . . وهم لايدرون أن هذه المهادنة كانت موقفا تـكتيكياً لضمان سكوتهم فى محاولة القضاء على الديمقراطية وعلى شخصياً . . ثم تعد خطة جديدة للانقضاض عليهم بعد ذلك » .

ثم يقول نجيب فى نفس المؤلف :

« وأوضح لهم رياض رأيى فى إنهاء الحـكم العسكرى الحالى وعودة الجيش إلى ثـكناته وإقامة الحيـــاة الديمقراطية البرلمانية وعودة الأحزاب والغـاء الرقابة على الصحف . ولـكنهم لم يوافقوا على ذلك وطالبوا ببقاء الحكم العسكرى الحالى وعارضوا عودة الأحزاب وإقامة الحياة النيابية كما عارضوا الغاء الأحكام العرفية وطالبوا باستمرار الأوضاع كما هى على أن ينفرد محمد نجيب بالحكم وأن يتم اقصاء

جمال عبد الناصر وباقى أعضاء مجلس الثورة وأن تشكل وزارة مدنية لايشترك فيها الاخوان المسلمون . ولكن يتم تأليفها بموافقتهم . وأن يعين رشاد مهنا قائدا عاما للقوات المسلحة وأن تشكل لجنة سرية استشارية يشترك فيها بعض العسكريين الموالين لى وعدد مساو من الأخوان المسلمين وتعرض على هذه اللجنة القوانين قبل إقرارها كما يعرض عليها السياسة الرئيسية للدولة وكذلك يعرض عليها أسماء المرشحين للمناصب الكبرى . . كأن الأخوان المسلمين بذلك يريدون السيطره على الحكم دون أن يتحملوا المسئولية » .

وقد رفضت هذه الاقتراحات جميعها وانتهت هذه المفاوضات السرية التى كانت بين محمد رياض والأخوان المسلمين .

إلى أن يقول الرئيس نجيب فى كلمته للتاريخ « اقترح محمد رياض معاودة الاتصال بالأخوان المسلمين الذين وقفوا بجانبى عند استقالتى لحذرته من ذلك لفقدانى الثقة فى اتجاه بعض زعماء الأخوان ومعارضتهم قيام الأحزاب والحياة الديمقراطية » .

وحكمت شريعة الغاب ومنح القانون أجازة مفتوحة وفى ظل دستور ميت مهجور وفى غياب الشرعية تعرضت الجماعة لمحنة ثالثة راح ضحيتها شهيد القرآن وخير من فسره لأهل زمانه صاحب الظلال وشهيد الاسلام سيد قطب وراح معه صحبه الأخيار ضحية تهم ملفقة مختلقة وتكررت المأساة وعاد الجلادون المردة وعادت كلاب الحراسة أشد فتكا وضراوة وأكثر حمقا وشراسة .

وبعد صمت مجبر امتد لأكثر من عقدين من الزمان عادت الدعوة مجلة الأخوان المسلمين ولسان حالهم المعبر ومن خلال المقالات والتحقيقات الصحفية الواردة بها مازال موقف قيادات الجماعة على العهد من قضية الأحزاب .

يقول الاستاذ صالح أبو رقيق فى العدد الثامن من الدعوة الجديدة تحت عنوان الدعوة كلمة :

« نعم إن الأخوان ليسوا حزبا ولاهم جمعية لأن منهجهم الاسلام . . الاسلام لايسعه حزب ولا تحده جمعية ، دين وسياسة فهم هيئة بذاتها تقصر عنها

المقاييس المستوردة ولاتنطبق عليها التقاسيم الدخيلة . ومن أجل هذا التكييف القانونى فحسب لم يطبق عليها المرسوم بقانون رقم ٣٧ لسنة ١٩٥٣ بشأن حل الأحزاب السياسية ولقد اعترفت الثورة لهم بهذا التكييف القانونى وهم متمسكون به على أية حال » .

ويرد فى نفس المقال كلمة غريبة جاء فيها :

« أما أصحاب العقيدة الشيوعية فلقد حدد دستورنا الأعظم موقفنا منهم على لسان رسولنا المصطفى الأمين عليه الصلاة والسلام (.. لكم دينكم ولى دين) وكنا أول من نادى بقيام حزب لهم » .

ويرد فى نفس العدد الثامن فى مقال « حول نظام الحكم فى الإسلام » للدكتور أبو المعاطى حافظ أبو الفتوح وتحت عنوان « الخروج من نطاق التعميم إلى التفصيل » حيث يقول :

« أن على الفكر الإسلامى المعاصر أن يخرج من نطاق التعميم فى هذه المسائل إلى التفصيل ومواجهة الواقع وطرح نفسه على الساحة فى داخل الأفكار الانسانية المتصارعة حول نفس الموضوع . فما موقف الفكر الاسلامى من قيام الأحزاب مثلا . وقد قال البعض بأن الاسلام لايعرف سوى حزبين حزب الله وحزب الشيطان وهو بذلك يصادر على الموضوع ولايبحثه علما بأن البديل عن ذلك هو قيام الحكم المطلق بكل البلاء المترتب عليه . وكيف يفسر قيام المذاهب والفرق المختلفة فى الاسلام فقهية كانت أم سياسية . وكيف نفسر قول على بن أبى طالب رضى الله عنه للخوارج أن لكم علينا ثلاثا : ألا نمنعكم صلاة فى هذا المسجد وألا نحرمكم نصيبكم من الفىء مادامت أيديكم مع ايدينا وألا نقاتلكم حتى تقاتلونا . وكان يقول عنهم إن سكتوا تركناهم وأن تحدثوا حاججناهم وإن أحدثوا فسادا قاتلناهم . أليس هذا بحزب آخر فى الاسلام ؟ وأليست هذه هى حقوقه تجاه الحزب الحاكم ؟ ولا أريد أن أطرح رأيا ولكنى أثير مجرد تساؤلات ... »

إلى أن يقول صاحب المقال :

« علما بأن رفض قيام الأحزاب فى الاسلام يوقع فى حيرة شديدة عن كيفية ترشيح الحاكم . ويقود إلى الحكم المطلق . . »

وفى العدد الثانى عشر من الدعوة الجديدة مقال تحت عنوان « وطننا الاسلامى » تعبر فيه الدعوة عن فرحتها بالمكاسب التى حققها حزب سلامة التركى وهو حزب إسلامى .

وفى العدد الثانى عشر من الدعوة الجديدة وعلى صفحة أخبار الشباب والجامعات تنشر الدعوة رغبة الشباب المسلم فى المطالبة بحزب إسلامى يعمل لاقامة الشريعة الاسلامية .

ويصدر قانون جديد للأحزاب يبيت للجماعة محنة جديدة من نوع آخر تهدف لعزلهم نهائياً وتصفيتهم سياسياً ولكن باللين وباسم القانون والشرعية . فقد ورد فى المادة (٤) من قانون الأحزاب الجديد :

« يشترط لتأسيس أى حزب سياسى مايلى :

وتحت شرط ثالثا يرد :

« عدم قيام الحزب على أساس طبقى أو طائفى أو فئوى أو جغرافى أو على أساس التفرقة بسبب الجنس أو الأصل أو الدين أو العقيدة . »

ومن جهة أخرى تنص المادة (٣٢) على القول التالى :

« تلغى المادتان ٢ ، ٦ من المرسوم بقانون رقم ٣٧ لسنة ١٩٥٣ فى شأن حل الأحزاب السياسية ولا يجوز استناداً إلى أحكام هذا القانون إعادة تكوين الأحزاب التى خضعت للمرسوم بالقانون المشار إليه أو الأحزاب التى تتعارض مقوماتها مع مبادىء ثورتى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ١٥ مايو ١٩٧١ . . »

وتبقى الجماعة التى أشرف تاريخ كفاحها على تمام نصف قرن من الزمان . تبقى سياسياً وعقائديا رغم كل المحن وبروح الإسلام وبمنطق العصر الحديث تبقى مطالبة بإجابة علمية محدده عن سؤالين هامين :

الأول : هل تعد الجماعة حزباً سياسياً ؟! أم ماذا ؟!

الثانى : هل توافق الجماعة على تعدد الأحزاب السياسية كأساس لقيام نظام حكم ديمقراطى ؟! أم لا ؟! ولماذا ؟!

إلا أننا لانستطيع أن نترك الأسئلة ملكا خالصاً للجماعة ترد عليها بما تشاء وخاصة السؤال الأول منها إذ لرجال القانون العام والسياسة رأى آخر متفق عليه وهو أن تعريف الشىء يرجع إلى طبيعته وليس إلى إرادة مالكه أو هوى الآخرين .

والحزب السياسى له تعريفه ومن أشهر التعريفات الواردة عن الاحزاب السياسية عند أساتذه القانون العام ورواد الفكر السياسى مايلى :

يقول الدكتور سليمان الطماوى :

« الحزب جماعة متحدة من الأفراد تعمل بمختلف الوسائل الديمقراطية للفوز بالحكم بقصد تنفيذ برنامج سياسى معين . »

ويقول الدكتور إبراهيم درويش :

« الحزب السياسى مجموع من الافراد مكون ابناء سياسى لتحقيق أهداف معينة عن طريق السلطة السياسية وذلك وفق العقيدة التى تحكم سلوكه وبما يتضمنه من سلطة صنع القرارات . »

وقديماً قال أدموند بيرك :

« الحزب مجموعة من الأفراد المتحدين لتحقيق الصالح القومى بمساعيهم المشتركة على أساس مبادىء معينة اتفقوا جميعاً عليها » .

ويقول جورج بيرك :

« الحزب هو كل تجمع لأشخاص يعتنقون نفس النظرية السياسية ويحاولون وضعها موضع الاعتبار والتقدير عن طريق التحالف مع أكبر عدد ممكن من

المواطنين ثم التوصل إلى السلطة أو على الأقل التأثير على قراراتها . »

ويقول موريس ديفرجيه :

« الحزب ليس مجرد جماعة ولكن انسجام بين جماعة . أنه اتحاد جماعات صغيرة مبعثرة فى عرض البلاد والربط بينها فى مؤسسات متضامنه . »

ويقول جان شارلو :

« الحزب السياسى فى مفهومه الحديث تنظيم سياسى له خصائص متميزة هى :

١ — الاستمرارية سواء فى بنائه الهيكلى أو حركته السياسيه .

٢ — الانتشار الاقليمى لأجهزته فى أنحاء الدولة .

٣ — المحاولة الدائمة للتوصل إلى السلطة فى الدولة استنادا إلى الجماهير الانتخابية أو إلى الجموع الشعبية » .

ولو تأملنا هذه النصوص والتعريفات وراجعناها على حركة الجماعة وتاريخها وفكرها ونشاطها تكون الجماعة حزبا سياسيا شاءت أم لم تشأ ! !

وتصبح على ذلك أزمة الجماعة أزمة فكر سياسى فهى حزب سياسى من واقع حالها وطبيعة نشاطها وينكر أصحابها أنهم حزب سياسى ؟ !

وقد ينكر الآخرون عليها صفة الحزبية لهوى فى النفس ويلجأون فى سبيل ذلك مسالك شتى فيضعون العراقيل من النصوص التى تهدف إلى حرمان الجماعة وعزلها سياسيا بحجة الأساس الدينى أو التعصب الطائفى . والاحزاب الدينية قائمة وموجودة فى كل الدنيا .

ذلك كله مفهوم أمره ربما لما تتمتع به الجماعة من قوة الجانب الذى يعمل له الآخرون ألف حساب . .

ولكن الذى يستعصى على الفهم والأمر المحير بحق هو أن تنكر الجماعة على نفسها صفة الحزبية السياسية . وتصر على أنها ليست حزبا سياسيا وهذا غاية المنى وأقصى ماينتظره منها الآخرون .

وترفض الجماعة نظام تعدد الأحزاب فيهال المتربصون ويتهمونها على ذلك برفض المنافسة الشريفة فى المجال السياسى والبحث عن فرصة ميكيافيلليه سريعة للوصول إلى السلطة .

وربما كانت كلها خواطر لم ترد على فكر الجماعة . وربما كانت الجماعة أقدر من غيرها على المنافسة السياسية فلديها خطباؤها وروادها وفكرها وتنظيمها .

إلا أنها وضعت نفسها موضع الشبهات بموقفها غير المدروس من قضية الحزبية وربما تعددت الأسباب وراء ذلك كله إلا أن مايعنينا منها بالدرجة الأولى وما نعتقد أنه أهم الأسباب جميعا وراء هذا الموقف المتناقض هو اعتقاد الجماعة بأن الأحزاب السياسية لاتتفق وروح الشريعة الإسلامية وإن النظام الحزبى حرام ومرفوض من وجهة نظر الشريعة .

والأمر لم يدرس دراسة وافية الجوانب تجمع مابين أصول الشريعة واضافات الفكر السياسى الحديث .

وهى بدون شك أحدى جوانب مشكلة التخلف التى نتحدث عنها وواحدة مما يشكل أزمة فى الفكر السياسى الإسلامى المعاصر .

ثانيا : « الجماعة الاسلامية » فى الباكستان :

وما يقال عن الجماعة الإسلامية فى الباكستان وموقفها الفكرى السياسى من قضية النظام الحزبى لا يختلف فى كثير عمـــا ذكر عن جماعة الأخوان المسلمين فى مصر .

يقول الإمام أبو الأعلى المودودى فى بحث له عن « النظرية السياسية فى الإسلام » .

« وفى مجلس الشورى الإسلامى لا يمكن أن ينقسم أعضاؤه جماعات وأحزابا ، بل يبدى كل واحد منهم رأيه بالحق بصفته الفردية ، فإن الإسلام يأبى أن يتحزب أهل المشورة ويكونوا مع أحزابهم سواء أكانت على حق أم على باطل . . . »

إلا أنه يقول أيضا فى نفس البحث وعن الدولة الاسلامية :

« لأن الدولة دولة حزب خاص مؤمن بعقيدة خاصة وفكرة مختصة به وهاهنا أيضا نوع من المماثلة بين الدولة الاسلامية والدولة الشيوعية ولكن الدولة الاسلامية بريئة كل البراءة مما تأتى به الدولة الشيوعية من أعمال مخزية ضد الذين لا يوافقون على نظرياتها » .

وما يضيفه الامام المودودى فى مجال للنظرية السياسية فى الاسلام هو قوله بالحركة الشاملة الأمر الذى تأثر به كثيراً وتوسع فيه شهيد الاسلام سيد قطب وأطلق عليه اسم « فقه الحركة » .

والحركة التى يقصدها كل منهما هى منهاج الانقلاب الاسلامى وسبيل تحقيق هذا الانقلاب .

يقول الامام المودودى فى بحثه « منهاج الانقلاب الاسلامى » وتحت عنوان « سبيل الانقلاب الاسلامى » .

« كذلك الدولة الاسلامية فإنها لا تظهر دولة إسلامية بطريقة خارقة للعادة بل لا بد لايجادها وتحقيقها من أن تظهر أولا حركة شاملة مبنية على نظرية الحياة الاسلامية وفكرتها » .

إلى أن يقول :

« ثم تأخذ هذه الحركة تنمو صعداً مع مالها من السيادة الفكرية والعقلية مكافحة ومقاومة للنظام الباطل المعوج السائد فى المجتمع الانسانى لانه فى مثل هذا الكفاح والمقاومة يمتحن القائمون بالدعوة وحاملو لوائها بأنواع من المصائب والشدائد فيقاسون الآلام والأهوال ضربا وقتلا واجلاء عن الوطن ، ويبذلون مهجهم وأرواحهم بكل صبر وجلد وإخلاص وعزم قوى ويبتلون بالشدائد ويفتنون فيخرجون منها ـ كالتبر المسبوك » .

ويقول الامام المودودى أيضا فى شأن هذه الحركة :

« تقوم هذة الحركة الشعبية وتنهض وتقوى حتى تغير بجهادها المستمر العنيف أسس الجاهلية الفكرية والخلقية والنفسية والثقافية السائدة فى الحياة الاجتماعية وتأتى على بنيانها من القواعد » .

ويبقى السؤال المحير قائما . لماذا لا يطلق على هذه الحركة اسم حزب . . وليكن حزب الله أو الحزب الاسلامى . وبدلا من أن يقال عن الحركة .

تغير بجهادها المستمر العنيف أسس الجاهلية الفكرية .

يقال يسعى الحزب الاسلامى بجهاده المستمر لانتزاع الأغلبية البرلمانية من الأحزاب الأخرى فيطبق شريعة الله .

وبخاصه وأن الامام المودودى يقول « ولكن الدولة الاسلامية بريئة كل البراءة مما تأتى به الدول الشيوعية من أعمال مخزية ضد الذين لا يوافقون على نظرياتها » .

ومن هذه الأعمال المخزيه بدون شك عدم السماح بتعدد الأحزاب وبخاصة إذا كانت هذه الأحزاب لا تخرج على النظام العام للدولة وتلتزم بالأصول المتفق عليها فى الشريعة .

إن القول بالحركة مع رفض النظام الحزبى الحديث فى نفس الوقت يثير العديد من الأسئلة المعقدة والمحيرة . . إذ كيف تمارس الحركة نشاطها ؟ !

ومتى تعلن عن نفسها ؟ ! وهل ينتظر عليها حكام الجاهلية الفكرية حتى يشتد عودها ؟ ! وكيف الخروج على الحاكم الظالم فى عصر كعصرنا ولو كان بمفرده وقد اختلفت نوعية السلاح ؟ !

وتتشعب الأسئلة ولكنها تلتقى فى النهاية حول سؤالنا الأول والمحير لماذا لا تسمى الحركة حزبا سياسيا له من الحقوق ما لغيره ويبدأ جهاده المستمر بالشرعية القائمة على عيوبها وفى ظل القانون المعمول به ضد أحزاب الجاهلية القائمة فيأتى بنيانها من القواعد ولكن بأساليب دستورية .

لماذا لا نتحدث بلغة العصر ونأخذ من أساليب الفكر السياسى المعاصر ما يحقق الهدف ويصل بنا إلى الغرض بأقل قدر من التضحيات وأقل قدر من المحن والخسائر ما دام ذلك فى الامكان » .

« وما جعل عليكم فى الدين من حرج »

الحج : ٧٨

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

البقرة ١٨٥

ولماذا كان الغموض فى الأسلوب وفى الفكر السياسى من أصحاب الحركات الاسلامية الحديثة ؟

وهو أمر ينتظره منهم على أحر من الجمر جبابرة الحكام فى هذا الزمان يستعينون به على اضطهاد مثل هذه الحركات المخلصة وأخذها ظلما بالشبهات والتهم الملفقة المغلفة بعبارات مدوية كعبارات الارهاب الدينى والتآمر السرى والشذوذ الفكرى .

ويعلم الله أن الأمر من جانب الحركات الاسلامية أولا وأخيراً إنما يصدر

عن اجتهاد وحسن نية واعتقاد بأن الحزبية والنظام الحزبى ليس مما يتفق وروح الشريعة الإسلامية .

فهل حقاً ترفض روح الشريعة العمل فى المجال السياسى بالنظام الحزبى الحديث ؟ .

هذا ما حاولت الإجابة عنه والبحث فيه على صفحات هذا الكتاب بقدر فهمى المتواضع لروح شريعتنا السمحة . . وإن أخطأت فمنى وإن أصبت فمن الله ولا أقول اجتهدت فلست أهلا بأى حال لهذا الشرف شرف الاجتهاد فى شريعة الله . .

وغاية المراد وأقصى ما أتمناه وتصبو إليه نفسى أن يكون هذا الجهد دافعاً لفقهاء الشريعة وعلمائنا المعاصرين ولأساتذة الدستورى والنظم السياسية فى بلاد المسلمين ولرواد الحركات الإسلامية الصابرين المأجورين أن تتكاتف جهودهم وتلتقى خبراتهم على طريق البحث الجاد فى أزمة الفكر السياسى الإسلامى بصفة عامة . . والإجماع بصفة خاصة على رأى موحد ومحدد فى قضية الأحزاب السياسية وموقف الشريعة الإسلامية منها يشاركنى فى ذلك الرأى والشعور كل من يشفق على الشباب المسلم فى حيرته وعلى الحركات الإسلامية فى محنتها .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

الفصل الأول

النظام الحزبي وأصول الفقه

المبحث الأول

تخلف البحث فى الفقه الدستورى عامة والنظام الحزبى خاصة

إن الباحث فى الشريعة الإسلامية وموقفها من النظام الحزبى قديماً وحديثاً يستطيع ببساطة ووضوح أن يتبين حقيقتين هامتين :

الأولى : تخلف الفقه الدستورى الإسلامى بوجه عام .

الثانية : اختلاف الرأى حول النظام الحزبى فى الإسلام بوجه خاص .

أولا : تخلف الفقه الدستورى الإسلامى :

يقول الدكتور السنهورى « إن الفقه الإسلامى — فى ميدان القانون العام — لايزال فى دور الطفولة » .

والنظام الحزبى واحد من مواضيع « القانون الدستورى والنظم السياسية » أحد فروع القانون العام . والنظام الحزبى ربيب النظام البرلمانى . والنظام البرلمانى الأم حديث عهد بالنشأة والدراسة ذلك فى الفقه الغربى والأجنبى فكان بالتالى من المواضيع المهملة والغائبة عن مجال البحث فى الفقه الإسلامى .

ولكن لماذا توقف الفقه الإسلامى فى ميدان القانون العام — عند مرحلة الطفولة ؟! ولماذا كان نصيب النظام الحزبى بصفة خاصة والقانون العام بصفة عامة القدر اليسير والقدر المحدود من بحوث الفقه الإسلامى !! والإجابة على ذلك سببان مرتبطان ببعضهما :

١ — أن كل تخلف ساد الفقه الإسلامى بصفة عامة يرجعه الباحثون إلى وقف حركة الاجتهاد ونزعة الجمود والتقليد فى أواخر القرن الرابع الهجرى . وذلك بسبب الفساد الذى استشرى والفوضى التى عمت شتى مجالات الفقه والقضاء فتصدر للافتاء من ليس أهلا له .

فكان أخف الضررين القول بوقف حركة الاجتهاد واقتصار الفقهاء على تقليد

السلف من الأئمة المجتهدين المتفق على حسن اجتهادهم . وذلك سبب عام يجوز على شتى فروع الفقه الإسلامى .

٢ — بطش الحكام وقسوتهم مع الأئمة والمجتهدين فى مجال القانون العام ونظام الحكم بالذات فلم يكن يسمح بفتوى على غير هوى الحاكم منذ تحولت الخلافة إلى ملك عضوض يعتمد على السيف لا على الشورى .

● وذلك يزيد ابن المقفع يقول قولته المشهورة « أمير المؤمنين هذا — مشيراً إلى معاوية — فإن هلك فهذا — وأشار إلى يزيد — ثم قال — فمن أبى فهذا — وأشار إلى سيفه .

فقال له معاوية : « اجلس فإنك سيد الخطباء » .

● وفى العصر العباسى استفتى المسلمون مالك بن أنس فى الخروج مع محمد ابن عبد الله ابن الحسن وقالوا له « أن فى أعناقنا بيعة للخليفة أبى جعفر المنصور » .

فقال لهم « إنما بايعتهم مكرهين ، وليس على مكره يمين » فأقبل الناس على محمد وما لزم مالك بيته حتى ناله من الخليفة أبى جعفر المنصور سوء العذاب لمثل هذه الفتوى السياسية إذ ضربوه سبعين سوطاً حتى انخلع كتفه .

● ومن رواد الفكر الدستورى الإسلامى وأشهر الباحثين فى هذا المجال بالنسبة لعصره هو أبو الحسن الماوردى المتوفى عام (٥٤٠هـ — ١١٤٦ م) وضع كتابه الشهير « الأحكام السلطانية » وبعد ما انتهى منه أوصى بعدم نشره إلا بعد وفاته .

ثانياً : اختلاف الرأى حول النظام الحزبى فى الاسلام :

جاءت صحوة الاجتهاد فى شتى فروع الفقه الإسلامى فى العصر الحديث على يد جمال الدين الأفغانى وصاحبه الإمام محمد عبده .

وبقيت النظم السياسية بصفة عامة والنظام الحزبى بصفة خاصة أقل فروع الفقه الدستورى الإسلامى نصيبا من الخوض والاهتمام .

وظهرت حديثاً بعض المحاولات للبحث فى أمر الأحزاب السياسية الحديثة وموقف الشريعة الإسلامية منها . وأهم مايميز هذه المحاولات :

١ — أنها محاولات محدودة وعابرة ضمن موضوعات أعم ولم تأت كأبحاث مستقـــلة .

٢ — إن أغلبها باستثناء القليل ورد على يد أساتذة من خارج أسرة القانون العام ومازال الكثير مطلوباً ومرجواً من أساتذة القانون الدستورى والنظم السياسية للتوفيق بين أصول الشريعة ومتطلبات العصر فى هذا المجال بالذات .

٣ — اختلاف وجهات النظر على طرفى نقيض بين مؤيد ومعارض بين قائل بأن النظام الإسلامى يسمح بل ويشجع نظام الأحزاب . وقائل بأن الاسلام يرفض نظام الأحزاب .

• من أهم محاولات المؤيدين لقيام الأحزاب فى ظل الشريعة الإسلامية :

١ — يقول الدكتور محمد ضياء الدين الريس:

« . . ومهما يكن من شيء فليس لمسجل هذه التطورات فى حياة الجماعة الإسلامية أن يندم أو يندب حظ الجماعة لوقوع هذا الخلاف وتشعب الآراء ووجود الفرق وتصادمها بعضها ببعض فان هذا — من وجهة أخرى — يعتبر برهان الحيوية ودليلا على القوى المذخورة والاستعداد للتطور والتقدم .

وهذه إحدى الخواص التى تمتدح من أجلها « الديموقراطية » فى الحاضر بل التى يقام منها الدليل أكبر الدليل على صلاحيتها وتفوقها كنظام للحكم على غيرها من النظم .

ولا يكاد أحد اليوم يتصور وجود ديمقراطية بدون معارضة أو أحزاب متنافسة يناضل بعضها بعضا وتدعو كل منها إلى مبادىء يريد أن يجعل منهـا دستوراً للحكم »

٢ — يقول الدكتور راشد البراوى :

وذلك بصدد شرح الآية الكريمة « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »

يقول : « .. هذا درس يجب أن يعيه الناس تماما . فإذا كان الله سبحانه وتعالى يقول لرسوله المصطفى أن ليس له أن يكره الناس على الإيمان فهذا التعليم موجه إلى البشر حتى يعملوا به لا فى مجال العقيدة فحسب ولكن أيضاً فى شتى المجالات التى تشتمل عليها حياة الجماعة أى لا ينبغى حمل الجماعة على اعتناق آراء أو مذاهب سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية معينة بالقسر والاكراه بحيث يعاقبون إذا لم يعتنقوها .

وبعبارة أخرى يعلمنا عز وجل أن الناس لا يمكن ولا ينبغى أن يصبوا فى قالب واحد وإلا تحجرت ملكاتهم العقلية وهبطوا إلى السلبية . فبالنسبة إلى كل مسألة مهمة هناك أغلبية لها رأى تغلبه وتدافع عنه ثم تطبقه وعلى الأقلية أن تنزل على ما ارتضته الأغلبية بعد إتاحة الفرصة أمام مختلف الأفكار ووجهات النظر وفى جو من الحرية الكاملة . ولكن — ومع هذا — لا تحرم هذه الأقلية حقها فى الاحتفاظ برأيها المخالف وفى الدفاع عنه فقد تتغير الظروف وإذا برأيها هذا يظفر بالتأييد من جانب الجمهور فيصبح رأيا للأغلبية وهنا نبادر إلى القول بأن اعطاء الأقلية مثل هذا الحق لا يعنى — ولا ينبغى أن يعنى — السماح لها بالخروج عن هذا النطاق فتلجأ إلى أساليب غير شرعية وغير مشروعة تثير الفتنة وتشيع الاضطراب وتحطم الأمن »

ويصل فى النهاية إلى خلاصة استنتاجه بقوله :

« . . وواضح مما قدمناه أن الإسلام لايقر مبدأ الحزب الواحد أو الحزب الوحيد ولكنه يسمح أو يشجع وجود ما يعرف الآن باسم الأحزاب » .

وهناك فريق من رواد النهضة العربية والإسلامية نستطيع أن نعتبرهم من المؤمنين بأن روح الشريعة الإسلامية تتقبل نظام الأحزاب ولا ترفضه وذلك من أقوالهم التى وردت لهم باستحسان النظام الحزبى كفن من فنون السياسة سبقنا إليه الغرب بل أن بعض هؤلاء الرواد كانوا أعضاء منتظمين فى أحزاب سياسية حديثة .

ومن أقوال هؤلاء الرواد المؤيدين لنظام الأحزاب :

١ — يقول رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ — ١٨٧٣) فى حديث عن الحرية الدينية « والحرية الدينية هى حرية العقيدة والرأى والمذهب بشرط ألا تخرج عن أصل الدين كآراء الأشاعرة والماتريدية فى العقائد وآراء أرباب المذاهب المجتهدين فى الفروع فان الانسان يأمن على أن يتبع مذهبا من هذه المذاهب يتمسك به فى العبادة ومثل ذلك حرية المذاهب السياسية وآراء أرباب الادارات الملكية فى اجراء أصولهم وقوانينهم وأحكامهم على مقتضى شرائع بلادهم فان ملوك الممالك ووزراءهم مرخصون فى طريق الاجراءات السياسية بأوجه مختلفة ترجع إلى مرجع واحد وهو حسن السياسة والعدل »

٢ — يقول عبد الرحمن الكواكبى (١٨٥٤ — ١٩٠٢) فى بحث له عن الاستبداد والتخلص منه وبعد قوله بأن شكل الحكومة هو أعظم وأقدم مشكلة فى البشر وهو المعترك الأكبر لأفكار الباحثين يقول الكواكبى مبرزا دور الأمم الغربية فى هذا المجال : حتى جاء الزمن الأخير فجال فيه إنسان الغرب جولة المغوار الممتطى فى التدقيق مراكب البحار فقرر بعض قواعد أساسية فى هذا الباب تضافر عليها العقل والتجريب وحصحص فيها الحق اليقين فصارت تعد من المقررات الاجتماعية عند الأمم المترقية ، ولا يعارض ذلك كون هذه الأمم لم تزل أيضا منقسمة إلى أحزاب سياسية يختلفون شيعا لأن اختلافهم هو فى وجوه تطبيق تلك القواعد وفروعها على أحوالهم الخصوصية »

٣ — يقول جمال الدين الأفغانى أسبق الدعاة إلى الشورى البرلمانية مع علمه ببعض ما فيها من عيوب :

« إنكم سترون عما قريب — إذا تشكل المجلس النيابى المصرى أنه سيكون ولا شك بهيكله الظاهر مشابها للمجالس النيابية الأوربية بمعنى أن أقل ما سيوجد فيه من الأحزاب حزب للشمال وحزب لليمين »

ولسوف ترون إذا تشكل مجلسكم أن حزب الشمال لا أثر له فى ذلك المجلس لأن من مبادئه أن يعارض الحكومة »

٤ — الإمام محمد عبده (١٨٤٩ — ١٩٠٥) :

يقول فى مقال له عن الحياة السياسية :

« فإن قيل : ما لنا لا نرى تفرق الأمم الأوربية أقساما وأحزاباً مانعاً من تزايد ثروتهم وتعاظم قوتهم واستفحال أمرهم فى الحياة السياسية ؟

قلنا : إن أولئك الأمم لا يختلفون على غايتهم المقصودة بالذات وإنما تتنوع الطرق التى يسلكونها إلى تلك الغاية فإن كان الفرنسوى جمهوريا أو ملكيا أو إمبراطوريا فهو فرنسوى على كل حال وقبل كل شىء وإن كان الألمانى محافظاً أو نجاحياً أو إجتماعياً فهو ألمانى من وراء ذلك . وهكذا الإنجليزى والإيطالى والنمساوى وسائر أهل المدينة والحياة السياسية» .

وكان الإمام محمد عبده عضواً بارزاً فى الحزب الوطنى القديم بل وواضع برنامج الحزب بنفسه .

٥ — عباس محمود العقاد :

يقول فى مقال له بصحيفة الأساس فى ٢/٩/١٩٤٩ :

« . . لأن حريتك هى حقك فى الاستقلال برأى يخالف آراء الآخرين . أما إستقلالك برأى يوافق آراء الآخرين فلا حاجة به إلى حرية لأنه حق يملكه

من شاء من الأقوياء والضعفاء ولا يخشى أحد أن يتصدى له من يجرده منه كائناً من كان وحيث كان » .

« فحق الإختلاف بالرأى هو الحرية ، وكل أمة جاز فيها للإنسان أن يخالف رأى غيره وجدت فيها الأحزاب وبقيت بعد ذلك مسألة التنظيم لتقسيم هذه الأحزاب على حسب التوافق فى الآراء » .

ثم يقول :

« إن بلاد الحرية الديمقراطية لم تخل قط من الأحزاب والمذاهب المختلفة . . وإنما خلت منها البلاد التى لا نتمنى أن نكون مثلها كالبلاد التى وقعت فى قبضة الشيوعية » .

وكان العقاد من المقربين إلى الزعيم سعد زغلول وعضواً فى حزب الوفد ثم أصبح بعد ذلك عضواً فى الحزب السعدى المنشق .

ومن القائلين برفض الشريعة الإسلامية لقيام الأحزاب :

١ — يقول الدكتور سليمان محمد الطماوى : « ولا شك أن النظام الإسلامى — على الأقل فى صدر الإسلام — لا يعرف ولا يستسيغ الأحزاب سواء تعددت أو لم تتعدد . فالفلسفة الإسلامية مقررة فى كتاب الله وفى سنة رسوله . وواجب الحاكم مقصور على وضع تلك السياسة موضع التنفيذ . فالخلاف بين المسلمين — على الأقل فى تلك الفترة — لم يكن يتعدى الخلاف حول الوسائل ولكنه لم يكن يمتد إلى الغايات أو الفلسفة العامة للحكم . وفى هذا المجال نجد أن الأسلوب الذى اتبع فى عهد عمر كان أسلوب النقد والنقد الذاتى بالوسائل المتاحة فى ذلك العهد » .

٢ — يقول أبو الأعلى المودودى فى بحث له بعنوان : « نظرية الإسلام السياسية » .

« وفى مجلس الشورى الإسلامى لا يمكن أن ينقسم أعضاؤه جماعات وأحزابا ، بل يبدى كل واحد منهم رأيه بالحق بصفته الفردية ، فإن الإسلام يأبى أن يتحزب

أهل المشورة ويكونوا مع أحزابهم سواء كانت على حق أم على باطل ، بل الذى يقتضيه الروح الإسلامى أن يدوروا مع الحق حيثما كان لا يحيدون عنه قيد شعرة أبداً ، فإن وجدوا اليوم رأى واحد منهم حقاً وصواباً فيكونوا معه وإن وجدوا رأى ذلك الرجل نفسه فى مسألة أخرى فى الغد خلافاً للحق فيعارضوه » .

٣ — يقول أبو الحسن الندوى تحت عنوان « التخلص من أنواع الأثرة » :

« أنه لا محل فى الإسلام لأى نوع من أنواع الأثرة ، أنه لا محل فيه للأثرة الفردية أو العائلية التى نراها فى بعض الأمم الشرقية والأقطار الإسلامية ولا محل فيه للأثرة المنظمة التى نراها فى أوربا وأمريكا وفى روسيا فهى فى أوربا أثرة حزب من الأحزاب وفى أمريكا أثرة الرأسماليين وفى روسيا قلة آمنت بالشيوعية المتطرفة وفرضت نفسها على الكثرة وهى تعامل العمال والمعتقلين بقسوة نادرة ووحشية ربما لا يوجد لها نظير فى تاريخ السخرة الظالمة » .

ثم يقول : « إن الأثرة — فردية كانت أو عائلية أو حزبية أو طبقية — غير طبيعية فى حياة الأمة وإنها تتخلص منها فى أول فرصة ، أنه لا محل لها فى الإسلام ولا محل لها فى مجتمع واع بلغ الرشد ولا أمل فى استمرارها » .

ويقول تحت عنوان : « رسالة العالم الإسلامى :

« فلا يزال الناس اليوم عاكفين على أصنام لهم — من أوثان منحوتة ومنجورة ومقبورة ومنصوبة — ولا تزال عبادة الله وحده مغلوبة غريبة ولا تزال الفتنة قائمة على قدم وساق ، ولا يزال إله الهوى يعبد ، ولا يزال الأحجار والرهبان والملوك والسلاطين أصحاب القوة والثروة والزعماء والأحزاب السياسية أرباباً من دون الله تقرب لها القرابين وينخفض لها الجبين » .

ثم يقول : « والإضطهاد السياسى اليوم أفظع من الاضطهاد الدينى فى القرون المظلمة ، فإذا تغلب حزب من الأحزاب الوطنية أو ساد مبدأ من المبادىء السياسية أو انتصر فريق على فريق فى الإنتخاب سد فى وجه منافسه الأبواب وعذبه أشد العذاب » .

٤ — أما الدكتور عبد الحميد متولى فينكر بالمرة على الجماعات الدينية أن تكون ذات نشاط له صبغة سياسية فيقول :

« ليس الذى يصح أن تؤاخذ عليه بعض الجماعات الدينية — فيما نعتقد — مقصوراً على الوسيلة : نعنى استعمالها العنف ، إنما هو كذلك يشمل الهدف : وهو الجلوس على مقاعد الحكم باسم الوقوف مواقف الدفاع عن الإسلام وتطبيق أحكامه » .

ثم يقول :

« إن الجماعة الدينية السياسية التى تجعل من أهدافها مقاعد الحكم ، بحجة تطبيق أحكام أو مبادىء الإسلام إنما تتحول إلى حزب سياسى ويتحول رئيسها من مرشد إلى رئيس حزب . وستلحق حتما بالجماعة ورجالها ورئيسها المساوىء والمفاسد والشهوات التى يذكرها التاريخ فى كل زمان ومكان عن الأحزاب السياسية ورجالها ورؤسائها » .

٥ — وينفى فتحى رضوان قيام معارضة حزبية فى تاريخ الإسلام فيقول :

« ولكن الإسلام لم يعرف — فى أى دور من أدوار حياته — المعارضة المتحزبة كجزء من نظامه ، كالتى يحسب أنها النظام الأمثل فى حين أن العمل يؤكد أنها على أحسن الأحوال شر لا بد منه فقد سجل التاريخ الحديث أن العالم ألقى به فى أتون المجزرة البشرية على يدى هذه المعارضة التى عميت عن المصلحة الكبرى من أجل المصلحة الذاتية » .

المبحث الثانى

﴿ محاولة الحكم على النظام الحزبى من خلال بعض مصادر الشريعة ﴾

ومصادر الشريعة الممكن الاستفادة منها فى قضية النظام الحزبى والمذاهب السياسية هى :

(أ) القرآن والسنة .

(ب) مذهب الصحابى .

(ج) المصالح المرسلة .

(د) القياس .

(أ) القرآن والسنة

(أولا) نصوص عامة فى نظام الحكم فى الإسلام :

جاء الإسلام فى مجال الفقه الدستورى الإسلامى وفى نظام الحكم بالذات وعلاقة الحكام بالمحكومين بمبادىء عامة وأسس رئيسية ملزمة تسمح عموميتها بمرونة التطبيق وفتح باب الاجتهاد فى نطاق أصول متفق عليها فى الشريعة .

والمبادىء العامة فى مجال الفقه الدستورى بالذات أنسب الحلول لمرافقة شتى الظروف المتجددة والمتغيرة فى ظل مختلف الأزمنة والأمكنة .

لا يعد ذلك عيبا أو تخلفا بل عين الصواب لشريعة هى خاتمة الشرائع وأهم خصائصها الخلود والدوام .

وفى هذا المعنى يقول الشيخ محمود شلتوت : « وقد كان هذا الوضع ، وهو تفصيل ما لا يتغير وإجمال ما يتغير – من ضرورة خلود الشريعة ودوامها » .

وأهم المبادىء العامة والملزمة والمتفق عليها فى مقام نظام الحكم فى الإسلام :

١ – مبدأ الشورى .

٢ – مبدأ العدالة .

٣ – مبدأ المساواة .

٤ – مبدأ الحرية .

٥ – مبدأ حسن معاملة الأقليات الدينية والسياسية .

٦ – مبدأ مسئولية الحاكم .

(١) مبدأ الشورى :

القرآن الكريم :

١ – قوله تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب

لا نفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » .

(سورة آل عمران آية ١٥٩)

٢ ـ قوله تعالى : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » .

(سورة الشورى آية ٣٨)

السنة :

١ ـ قوله صلى الله عليه وسلم « ما ندم من استشار ولا خاب من استخار » .

٢ ـ قوله صلى الله عليه وسلم « اثنان خير من واحد وثلاثة خير من اثنين وأربعة خير من ثلاثة فعليكم بالجماعة ، فإن الله لن يجمع اثنين إلا على هدى » .

٣ ـ قوله صلى الله عليه وسلم « واستعينوا على أموركم بالمشاورة » .

٤ ـ قوله صلى الله عليه وسلم « ما استغنى مستبد برأيه وما هلك أحد عن مشورة » .

(٢) مبدأ العدالة :

القرآن الكريم :

١ ـ قوله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

(سورة النساء آية ٥٨)

٢ ـ قوله تعالى « إن الله يأمركم بالعدل والإحسان » .

(سورة النحل آية ٩٠)

٣ ـ قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين »

(سورة النساء آية ١٣٥)

٤ — قوله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » .

(سورة المائدة آية ٨)

٥ — قوله تعالى « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

(سورة الأنعام آية ١٥٢)

السنة :

١ — قوله صلى الله عليه وسلم « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمام عادل وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر » .

(٣) مبدأ المساواة :

القرآن الكريم :

١ — قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

(سورة الحجرات آية ١٣)

٢ — قوله تعالى « إنما المؤمنون إخوة » .

(سورة الحجرات آية ١٠)

السنة :

١ — قوله صلى الله عليه وسلم « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإن سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذى نفس محمد بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطعت يدها » .

٢ — قوله صلى الله عليه وسلم « ليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى » .

٣ — قوله صلى الله عليه وسلم لبنى هاشم « يابنى هاشم لا يجيئنى الناس بالأعمال وتجيئونى بالأنساب إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

(٤) مبدأ الحرية .

القرآن الكريم :

قوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » . (سورة آل عمران آية ١٠٤)

السنة :

قوله صلى الله عليه وسلم « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

(٥) مبدأ حسن معاملة الأقليات الدينية والسياسية :

القرآن الكريم :

١ — قوله تعالى « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » (سورة البقرة آية ٢٥٦)

٢ — قوله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » . (سورة النحل آية ١٢٥)

السنة :

قوله صلى الله عليه وسلم « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته أو انتقصه أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه يوم القيامة » .

(٦) مبدأ مسئولية الحاكم :

القرآن الكريم :

١ — قوله تعالى « ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » . (سورة الشعراء ١٥١ ، ١٥٢)

٢ — قوله تعالى « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » . (سورة الكهف آية ٢٨)

السنة :

١ — قوله صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » .

٢ — قوله صلى الله عليه وسلم « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » .

٣ — قوله صلى الله عليه وسلم « لا طاعة فى معصية ، إنما الطاعة فى المعروف » .

ثانياً : نصوص عامة فى وحدة الجماعة .

القرآن الكريم :

١ — قوله تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » .

(سورة آل عمران ١٠٥)

٢ — قوله تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » .

(سورة الانفال آية ٤٦)

٣ — قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

(سورة آل عمران آية ١٠٣)

٤ — قوله تعالى : « ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا » .

(سورة الروم ٣١ ، ٣٢)

٥ — قوله تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء »

(سورة الأنعام آية ١٥٩)

السنة :

١ — قوله صلى الله عليه وسلم « لا تختلفوا ، فان من كان من قبلكم اختلفوا فهلكوا » .

٢ — قوله صلى الله عليه وسلم « يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ فى النار » .

٣ — قوله صلى الله عليه وسلم « الجماعة رحمة والفرقة عذاب » .

٤ — قوله صلى الله عليه وسلم « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق بينكم فاقتلوه » .

٥ — قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثا يرضى لكم أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم . . . . الخ »

ثالثاً : نصوص عامة فى حرية العقيدة والخلاف :

القرآن الكريم :

١ — قوله تعالى : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

٢ — قوله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » . (سورة يونس آية ٩٩)

٣ — قوله تعالى : « قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » .
(سورة هود آية ٢٨)

السنـــة :

قوله صلى الله عليه وسلم « اختلاف أمتى رحمة » .

رابعاً : نصوص عامة فى وقوع الخلاف :

القرآن الكريم :

١ — قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » .
(سورة البقرة آية ٢١٣)

٢ — قوله تعالى : « ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء فى رحمته » . (سورة الشورى آية ٨)

٣ — قوله تعالى : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون » . (سورة يونس آية ١٩)

٤ — قوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين »
(سورة هود آية ١١٨)

السنـــة :

١ — قوله صلى الله عليه وسلم « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » .

واختلف العلماء فى صحة هذا الحديث ولكن « المقبلى » يقول فى كتابه « العلم الشامخ » « وحديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة رواياته كثيرة يشد بعضها بعضاً بحيث لاتبقى ريبة فى حاصل معناه » .

٢ — عن مالك عن عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عتيك أنه قال :

جاءنا عبد الله بن عمر فى بنى معاوية وهى قرية من قرى الأنصار فقال : هل تدرون أين صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجدكم هذا : فقلت له : نعم وأشرت له إلى ناحية منه فقال: هل تدرى ما الثلاث التى دعا بهن فيه ، فقلت : نعم :قال فأخبرنى بهن فقلت ، دعا بأن لايظهر عليهم عدوا من غيرهم . ولا يهلكهم بالسنين . فأعطيهما . ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم . فمنعها . قال : صدقت .

قال ابن عمر : فلن يزال الهرج إلى يوم القيامة .

خامساً : نصوص عامة فى الالتزام السياسى :

القرآن الكريم :

١ — قوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . (سورة آل عمران آية ١٠٤)

٢ — قوله تعالى « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

(سورة التوبة آية ١٢٢)

السنـــه :

قوله صلى الله عليه وسلم « من مات وليس فى عنقه بيعة فقد مات ميتة جاهلية »

سادساً : نصوص خاصة فى مجال الفقه السياسى .

القرآن الكريم :

قوله تعالى « فلا تزكوا أنفسكم »

(سورة النجم آية ٣٢)

السنة :

١ — قوله صلى الله عليه وسلم « إنا والله لا نولى هذا العمل أحداً سأله أو أحداً حرص عليه » .

٢ — وحديث شريف أكثر خصوصية وتحديداً يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش »

● وقبل الحديث عما يمكن أن توحى به روح النصوص خلال الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة السابق ذكرها يلزم التنبيه إلى عدة حقائق هامة هى :

(١) أن الإسلام دين كامل ومتكامل يشد بعضه بعضاً ويكمل بعضه البعض ونهانا المولى سبحانه وتعالى عن الأخذ ببعض الكتاب وترك بعضه الآخر أو الإيمان بجانب والكفر بجانب آخر .

« أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون »

(سوره البقرة آية ٨٥)

ورغم ذلك فعندما يطرح نظام الأحزاب السياسية الحديثة للبحث من وجهة نظر الشريعة الإسلامية يقول البعض بالرفض على طول الخط متأثرين فى ذلك فقط بالنصوص

الواردة فى وحدة الجماعة وعدم التفرقة وفاتهم الكمال الوارد فى الشريعة من حيث الحرص على تحقيق وحدة الجماعة مع كفالة حرية الرأى فى نفس الوقت وإتاحة الفرصة لخلاف بناء باطنه الرحمة وظاهر الشقاق ، وحسن معاملة الأقليات الدينية والسياسية والشورى والمساواة والعدالة ومسئولية ومساءلة الحاكم . تلك المبادىء الديمقراطية الأصيلة التى سبق الإسلام فى مجالها حضارة الغرب بأربعة عشر قرناً من الزمان من المهم بالدرجة الأولى أن يسأل الباحث نفسه عن المناخ السياسى المناسب حالياً لتحقيق هذه المبادىء والإفادة منها واضعاً فى الاعتبار الربط بين النصوص مجتمعة .

(٢) لا يفرق البعض بين الأحزاب فى عصرنا الحديث والأحزاب فى عصر النبوة من حيث اللفظ فكلمة الأحزاب مكروهة عند المسلم أصلا ووقعها بغيض لدى حسه وسمعه لأنها تعود حال سماعها بالذكرى لأول عهد المسلمين بها حيث الأحزاب هم أعداء رسول الله من الكفار ممن أذوا الرسول وحاربوه والمسلمون فى شتى بقاع الدنيا ودائماً وأبدا يحمدون الله ويكبرون له بالشكر والثناء على نصره لنبيه وجنده وهزيمته الأحزاب وحده وأن الأحزاب دائماً عنوان الفتنة والخلاف .

وعلى الباحث المتأنى عدم التورط فى هذا اللبس اللفظى والمعنوى فالأحزاب الحديثة كفن من فنون السياسة شىء مختلف تماما إذ للأحزاب حالياً وظائفها الهادفة والحيوية والتى تخدم بها النظام السياسى . ومن الأوليات والبديهيات المتفق عليها فى هذا المجال والتى يجب أن تحظى باهتمام الباحث المسلم فى العصر الحديث :

١ — من حق كل نظام فى أى بلد من البلاد الحرة عدم السماح بقيام أحزاب سياسية معادية تهدد أمن البلد وتخرج على نظامه العام .

٢ — يضع النظام الحزبى الحديث فى إعتباره الاحتياط الكامل للظروف الطارئة والتى تهدد وحدة الجماعة ويتعرض فيها أمن البلاد للخطر فتلجأ الأحزاب جميعها إلى نظام الائتلاف الحزبى ويتم تشكيل حكومة إئتلافية بهدف الوحدة من أجل المصلحة العليا للبلاد ومن حقها إلغاء الأحزاب إذا دعت الضرورة لذلك .

٣ — أساس قيام النظام الحزبى الحديث وكفن سياسى حديث ما يقدمه من وظائف أساسية أهمها تنظيم المعارضة كوظيفة حيوية وتثقيف الجماهير وتوعيتهم بمشاكلهم السياسية وإعداد القادة السياسيين وحسن اختيارهم بالكفاءة والعدل وتحقيق انتقال السلطة بالطرق السلميه وبأقل قدر ممكن من التضحيات .

٤ — أن أكثر مساوىء الأحزاب السياسية تعود فى أغلب الحالات لأسباب خارجة عن النظام أصلا كالتدخل الأجنبى فى بعض الحالات والتخلف الثقافى لجماهير الشعب ووقوعهم فريسة لتأثير جماعات الضغط وتخلف نظم الانتخاب المعمول بها ولجوء السلطة إلى إقامة أحزاب حكومية أو فرض نظام الحزب الواحد بالقوة .

وغاية ما يقال فى عيوب الأحزاب أنها الشر الذى لابد منه على الطريق أو الاختيار المجبر بين ضررين . فما يقع من مساوىء وتضحيات فى ظل الأنظمة الأخرى والتى ترفض قيام الأحزاب أكثر بكثير مما تتكبده الشعوب فى ظل النظام الحزبى .

٥ — أن مايشاع فى منطقتنا من أن النظام الحزبى أقامه المستعمر لإثارة الفتنة وتفتيت وحدة الجماعة خدمة لاغراضه القائمة على سياسة فرق تسد مردود عليه بحجج ثلاث :

الحجة الأولى :

إذا صح هذا عن الأحزاب فى البلاد المحتلة فما الذى يقال عن الأحزاب السياسية فى بلاد المستعمر نفسه ؟ ! ولماذا لاتكون الأحزاب فى منطقتنا من نوع الأحزاب على شاكلة ما هو فى بلاد الغرب الذى سبقنا فى مجال الفقه الدستورى السياسى وفى تحقيق الاستقرار السياسى فى البلاد ؟

الحجة الثانية :

أنه إذا كانت هناك بعض الأحزاب العميلة فقد كان هناك بالدرجة الأولى الأحزاب الوطنية التى نجحت فى طرد المستعمر وكشف أساليبه وفضح هذه الأحزاب العميلة .

الحجة الثالثة : أن حكام النظم الديكتاتورية والعسكرية وراء القول بأن الأحزاب السياسية ربيبة النظم الاستعمارية وهم فى ذلك يضربون على أكثر من وتر حساس ويخدعون بأساليبهم الملتوية عامة جماهير الشعب المتخلفة إذ يربطون بين الأحزاب والمستعمر وبين الأحزاب وتفتيت الوحدة الوطنية وبين الأحزاب والاعتصام بحبل الله ووحدة الجماعة التى نص عليها الدين وهم فى كل ذلك يبيتون شيئاً آخر .

وعلى الباحث المسلم التنبيه لكل مايستغل باسم الدين لخداع الجماهير .

(٣) أن الشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع وشريعة كل زمان ومكان وإن كانت تصبو دائما إلى التحليق فى سماء المثاليات فإنها وهى تنشد الكمال فى التشريع لايفوتها أن تنظر إلى العالم الأرضى بواقعه الفطرى فتحسب لكل صغيرة وكبيرة حسابها . والقول بأن روح الشريعة الإسلامية ترفض الأحزاب ولا يصح فى نظر الاسلام إلا القول بحزب واحد هو حزب الله وماعداه حزب الشيطان قول يستحق منا التوقف للتأمل والنظر خاصة وقد دار التاريخ دورته ورأينا فى بعض حكام الأمويين والعباسيين والعثمانيين من الظلم والاضطهاد مالا يمت لروح الاسلام بصلة وماأيسرها من مهمة أن يأتى الجبابرة من حكام المسلمين قديما وحديثا بمن يفتى لهم من ضعاف الأئمة والمجتهدين بأن حكمهم مطابق لحكم الله والمعارض لهم ولو كان على الحق خارج على دين الله يستحق البتر وأن الاسلام لايقبل الحزبية والانشقاق وانما يقبل حزبا واحدا والخارج على الجماعة خارج من دين الله وتنعكس الآية وتنقلب الاوضاع وكم علقت المشانق وملئت المعتقلات والسجون ظلماً وبهتانا ولانجاة للمسلمين ولااحتياط لمثل هذه الظروف والأوضاع المقلوبة إلا بحرية تكوين الأحزاب المعارضة فقد يأتى زمان وكثيرا ماكان فيه المعارض مظلوم وهو على الحق والحاكم ظالم بغير حق .

(٤) مما لايختلف عليه إثنان وليس موضع جدل أن كل حديث عن القول بقيام أحزاب أو فرق سياسية فى ظل الاسلام مقيد بعدم خروج أى حزب منها فى أهدافه ومبادئه عن كبيرة أو صغيرة من أصول الشريعة المتفق عليها فلا اجتهاد مع النص .

وفى ذلك المعنى يقول الشيخ محمد أبو زهرة :

« إن هذا الاختلاف لم يتناول لب الدين فلم يكن الاختلاف فى وحدانية الله تعالى وشهادة أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى أن القرآن نزل من عند الله تعالى وأنه معجزة النبى الكبرى ولا فى أنه يروى بطريق متواتر نقلته الاجيال الاسلامية كلها جيلا بعد جيل ، ولا فى أصول الفرائض كالصلوات الخمس والزكاة والحج والصوم ولا فى طرق أداء هذه التكليفات . »

« وبعبارة عامة لم يكن خلاف فى ركن من أركان الاسلام ولافى أمر علم من الدين بالضرورة كتحريم الخمر والخنزير وأكل الميتة والقواعد العامة للميراث وانما الاختلاف فى أمور لاتمس الأركان ولا الأصول العامة »

ثم يقول الشيخ محمد أبو زهرة فى موضع آخر حول نفس المعنى :

« وأنه إذا كانت هناك آراء تمس الاعتقاد فقد نحى العلماء معتنقيها عن أن يكونوا فى زمرة المسلمين . فمثلا ظهرت فى عهد على رضى الله عنه طائفة تعتقد حلول الله تعالى فى على بن أبى طالب تسمى « السبئية » وأخرى تعتقد أن الرسالة كانت لعلى رضى الله عنه ولكن جبريل أخطأ ونزل بها على محمد صلى الله عليه وسلم وتسمى « الغرابية » ولكن المسلمين جميعاً يقررون أن هاتين الفرقتين ليستا من أهل الاسلام فى شىء . كما أن فى الخوارج فرقة تنكر سورة يوسف وهذه هى الأخرى أجمع المسلمون على أنها ليست من أهل الاسلام »

● بعد ذلك يمكن القول بأن روح النص من خلال مجموع الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الواردة فى شتى جوانب الفقه الدستورى الاسلامى وبلغة العصر لاترفض بل تؤيد حرية قيام أحزاب سياسية حديثة ملتزمة بأصول الشريعة المتفق عليها . وذلك للاسباب الآتية :

(أولا) المبادىء العامة الملزمة كالشورى والعدالة والمساواة والحرية يصعب تحقيقها كما يصعب حمايتها والحفاظ عليها فى العصر الحديث فى ظل نظام يرفض الأحزاب السياسية

١ — فالشورى والمعارضة وجهان لعملة واحدة هدفها المشاورة والمراجعة وتبادل الرأى والنصيحة بين الحاكم والمحكومين من أجل المصلحة العامة وفى صدر الاسلام وأيام الخلفاء الراشدين كان هناك الصحابة وصفوة المجتهدين وكان الإمام الواحـــد على زمانه قادرا وبمفرده على الإلمام بكل مشاكل عصره الفقهية والسياسية — أما اليوم وقـــد تعقدت وتشعبت المشاكل وتعددت وتفرعت التخصصات وزاد تعداد السكان وانتشر العمران فقد أصبح من الصعب التعرف على من تجب مشاورتهم ومن هم أهل لذلك ومتى وكيف تتم عملية مشاورتهم كما أصبح من الصعب أمكان قيام معارضة منظمه وجادة وقادرة وهادفه بدون تنظيمات سياسية لها من الامكانيات والوسائل ماتقدر به على التعبير عن الرأى ونشره وحمايته والدفاع دونه الأمر الذى لايتوافر حديثا إلا عـــلى صورة الأحزاب السياسية .

٢ — والعدالة والمساواة مبدآن أساسيان تلزم بهما الشريعة الاسلامية كل حاكم مسلم وكلاهما من حق الشريف والضعيف وفى شتى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وبلغة العصر الحديث لايتفق أثنان على توافر هذين الحقين فى ظل النظم الملكية الوراثيــة أو الديكتاتورية والعسكرية أو النظم الحزبية الخادعة كنظام الحزب الواحد وأحزاب السلطة وإنما هما أقرب إلى التحقيق فى ظل نظام حرية تكوين الأحزاب — هـذا وإذا كانت العدالة والمساواة من حق الضعيف فى شتى المجالات فهما من باب أولى من حق الشريف فى أهم المجالات وأخطرها شأنا على مصلحة الجماعة وهو المجال السياسى ونعنى بالذات مجال الولاية ومن يعهد لهم بالمناصب السياسية والقيادية العليا من أبناء المسلمين الأمر الذى لاتتوافر فيه العدالة والمساواة إلا فى ظل حرية التنظيمات السياسية وحرية الصراع السياسى المتكافىء فى الفرص والضمانات .

٣ — وحرية الرأى وشجاعة الفرد من المبادىء والقيم الأساسية التى تلزم الشريعة الإسلامية الافراد حكاما ومحكومين باعتناقها والعمل بها — وفى مجـال الحرية السياسية يقول المعصوم عليه أفضل الصلاة والسلام « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

والسؤال الذى يفرض نفسه عند هذه النقطة بالذات هو: كيف يقول المواطن الحر فى العصر الحديث كلمته للسلطان الجائر ؟ ! أين ومتى يقولها ؟! وإذا استعصى عليه القول فأين ينشرها أو يذيعها ومن ينشرها أو يذيعها له ؟ ! .

وهل المهم قولها أم النتيجة التى ترجى من وراء قولها ؟ .

إن شريعة الإسلام خاتمة الشرائع وشريعة العقل والمنطق لاتشرع أوامرها ونواهيها هكذا عبثا بدون احتياط وهدف . وحرية الكلمة والرأى لابد لها من ضمانات من تنظيم يضمن لها أن تؤتى ثمارها المرجوة . تنظيم يناسب لغة أوانه ومكانه .

والفرد وحيدا فى عصرنا الحالى لايستطيع أن يقدم أو يؤخر مالم يسنده تنظيم يحمى صوته ويبلغه للآخرين ويدافع عنه بوسائله الحديثة من ندوات ومؤتمرات وخطابة ونشر .

وأنظر إلى قوله تعالى :

« فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

(سورة التوبة آية ١٢٢)

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

(سورة آل عمران آية ١٠٤)

وكلمة الحق التى يجب أن تقال وتستحق منا الاعداد والتنظيم لقولها إنما تقال عند سلطان جائر ، والسلطان الجائر هو الآخر له عدته وتنظيمه ومن هنا تعددت التنظيمات شئنا أم لم نشأ . وإن لم نشأ لها العمل فى واضحة النهار وفق أسلوب دستورى لجأت إلى العمل فى الخفاء بأسلوب الدس والمؤامرات والتنظيمات السرية .

وخطأ الذين يرفضون الأحزاب فى ظل الإسلام إنما يقع فى افتراضهم عدالة الحكام على الدوام وتصورهم للزوم وحدة الجماعة فى كل حال وعلى أى حال . والشريعة الكاملة هى التى تضع فى اعتبارها ضعف الطبيعة البشرية وتحسب لكل صغيرة وكبيرة حسابها الذى تستحقه من الوقاية والعلاج . ولا قيمة لمبدأ الحرية ، ولا أمانة ولا ضمان لخلاص المسلمين من قبضة سلطان جائر دون الاعتراف بحق تكوين أحزاب سياسية معارضة لا تخرج فى أهدافها وأسلوب عملها على الأصول المتفق عليها فى الشريعة .

(ثانياً) من مبدأ حسن معاملة الأقليات الدينية والسياسية أن يمنح أصحابها حق التعبير عن آرائهم وممارسة نشاطهم الفكرى والسياسى من خلال تنظيمات سياسية إذا طلبوا ذلك ملتزمين فى أهدافهم ووسائل عملهم بالنظام العام .

(ثالثاً) من مبدأ مسئولية الحاكم ألا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق فالحاكم المسلم مسئول عن أفعاله يسأل عليها من الرعية ولا يطاع فى معصية وعدم طاعة السلطان الجائر متفق عليه من جمهور الفقهاء فالحديث الشريف صريح إذ يقول الرسول عليه الصلاة والسلام .

« على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعه » .

أما الخروج على السلطان الجائر فقد اختلف فيه الفقهاء فمنهم من يقول بعدم الخروج ويستند فى ذلك لما ورد فى الأثر .

« أن السلطان ظل الله فى أرضه يأوى إليه كل مظلوم من عباده فإذا عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر ، وإذا جار كان عليه الأصر وعلى الرعية الصبر » .

ومنهم من يقول بالخروج ما أمكن وفى ذلك يقول الشيخ محمد الخضر حسين فى كتاب « نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم » .

« أما البغاة والعاصون — من أولى الأمر — فقد أمر الإسلام بكفاحهم وسل السيوف فى وجوههم ما استطعنا لذلك سبيلا . وأذن لنا بأن نجنح لسلمهم حينما نخشى فتنة أشد من محاربتهم عملا بقاعدة — إرتكاب أخف الضررين » .

والسبب فى ميل البعض للقول بعدم الخروج إنما هو الحرص العام والخوف من أن يؤدى الخروج إلى فتنة يضيع فيها الحق ويتبع الهوى .

ومشكلة الخروج على السلطان الجائر والرجوع فى بيعته أجهدت الفقهاء كثيراً وطالما أريقت بسببها الدماء وتكبد المسلمون بسببها الكثير من العنت والعناء ، وفى العصر الحديث تجد المشكلة حلها الأنسب والأقرب لروح الشريعة والأخف وطأة فى عواقبه وذلك إذا أخذنا بنظام تعدد الاحزاب .

إذ الحاكم على رأس حزب الأغلبية وما على المحكومين إذا جار أو انحرف إلا أن يتحولوا بمشاعرهم وتأييدهم عن حزبه إلى الحزب المعارض .

(رابعاً) أن النظام الحزبى الحديث هو الاقدر على تحقيق الأهداف الساميه التى تصبو إليها روح النصوص الخاصة فى مجال الفقه الدستورى الإسلامى .

١ — ففى مجال النهى عن تزكية النفس حيث يقول تعالى :

« فلا تزكوا أنفسكم » .

ويقول الرسول الكريم :

« إنا والله لا نولى هذا العمل أحداً سأله أو حرص عليه » .

ومع ربط هذه النصوص بما ورد من نصوص أخرى فى مجال الإلتزام السياسى ومنها قوله صلى الله عليه وسلم :

« من مات وليس فى عنقه بيعة فقد مات ميتة جاهلية » .

نستطيع فى النهاية أن نخرج بمبدأ هام من مبادىء نظام الحكم فى الإسلام وهو ضرورة البيعة والتولية مع عدم تزكية صاحب الشأن لنفسه وإنما تزكيه الأمة الملزمة بألا تلقى الله إلا وفى عنق كل فرد من أفرادها بيعة .

وبطرح هذا المبدأ على النظم السائدة حاليا يرفض الإسلام النظم الملكية الوراثية بطبيعة الحال ، فالملك إنما يزكى نفسه وولده من بعده شاءت الأمة أم لم تشأ ، وكذلك النظم الدكتاتورية والنظم العسكرية ونظم الحزب الواحد وجميع الأنظمة الخادعة والتى يفرض فيها الحاكم نفسه على الأمة . ومن أجل هذه

الأنظمة جميعاً ولمن يفرضون أنفسهم حكاماً بالقوة والسلطان جاء قوله تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم » .

أما فى ظل نظام الأحزاب الشعبية الحرة فزعيم الأمة أى زعيم حزب الأغلبية إنما يزكيه حزبه وتزكيه وتلتف حوله وتتمسك به أغلبية جماهير الأمة الأمر الذى يحقق روح النصوص مجتمعة ويجمع بين التولية وعدم التزكية للنفس .

٢ — وأما بالنسبة للحديث الشريف للمعصوم عليه أفضل الصلاة والسلام : « الأئمة من قريش » .

نستطيع أن نقول إنه لم يحسم الصراع السياسى ولم يفصل بالحق بين المهاجرين والأنصار فى يوم سقيفة بنى ساعدة غير هذا الحديث الشريف .

ولا خلاف على أن الأخذ بنص الحديث اليوم لا يعقل ولا يجوز فأين قريش منا الآن ولكن الذى يجب علينا الآن هو الأخذ بروح النص ومعناه والحكمة النبوية الشريفة التى يرمى إليها النص .

وحول هذا المعنى يقول ابن خلدون فى مقدمته « وأما النسب القرشى فلإجماع الصحابة يوم السقيفة عليه إلا أن أمر قريش ضعف وتلاشت عصبيتهم بالترف فعجزوا عن الخلافة . وحكمة اشتراط النسب القرشى إعتبار العصبية لصاحب المنصب فتسكن إليه الملة لأن قريشاً عصبية مضر ولهم على سائر مضر العزة بالكثرة والشرف فسائر العرب يعترف لهم بذلك فلو جعل الأمر فى سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم فتتفرق الجماعة والشارع حرص على اتفاقهم فاشترط نسبهم لهذا المنصب — فإذا اشترطت القرشية لدفع التنازع بما لهم من العصبية — والشارع لا يخص الأحكام بجيل ولا عصر . اشترط فى القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قوية غالبة لتجتمع الكلمة » .

وفى عصرنا الحديث وقد انتهى زمان العصبية العائلية والقبلية لم يعد يبقى من عصبية قوية غالبة تجتمع حولها الكلمة إلا عصبية الأغلبية الديمقراطية ، وهى لا تتحقق إلا فى ظل نظام الصراع الحزبى المتكافىء بالعدل والمساواة وعدم

الخداع وفى حدود الأصول الثابتة فى الشريعة وزعيم حزب الأغلبية هو صاحب العصبية القوية والقادر وحده على جمع الكلمة .

(خامساً) الدين الإسلامى دين الفطرة والواقع . ووقوع الخلاف والإفتراق من سنن البشر واختلاف الناس من الصفات الملازمة للطبيعة البشرية وهذه الحقيقة على وضوحها وبساطتها لا ينكرها إلا غير خبير . فوقوع الخلاف فطرة فطر الله الناس عليها ومهمتنا فى هذا المجال هى تقويم هذا الخلاف وتنظيمه والاستفادة منه فيما فيه صلاح حال المسلمين والناس أجمعين .

وحول هذا المعنى يقول خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز :

« ما أحب أن صحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يختلفون لأنه لو كان قولا واحداً لكان الناس فى ضيق . وإنهم أئمة يقتدى بهم فلو أخذ رجل بقول أحدهم لكان سنة » .

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة :

« وإذا كان الإفتراق حول العقائد فى جملته شراً فإنه يجب أن نقرر أن الاختلاف الفقهى فى غير ما جاء به نص من الكتاب والسنة لم يكن شراً بل كان دراسة عميقة لمعانى الكتاب والسنة وما يستنبط منها من أقيسة ولم يكن افتراقا ، بل كان خلافاً فى النظر وكان يستعين كل فقيه بأحسن ما وصل إليه الفقيه الآخر ويوافقه أو يخالفه » .

ومهما اختلف المجتهدون حول هذه النقطة بالذات وحاول البعض بحسن نية لىّ النص وتطويعه فالمولى سبحانه وتعالى العليم الخبير يقول فى كتابه العزيز :

● — « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين » .
(سورة هود آية ١١٨)

ويقول سيد الخلق محمد فى حديثه الشريف :

« افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » .

ويقول أيضاً : « اختلاف أمتى رحمة » .

وبمراجعة النصوص القرآنية الكريمة والمحمدية الشريفة الواردة فى وقوع الخلاف كسنة طبيعية من سنن البشر لا نعتقد بعدها أن أدموند بيرك قد جاء بجديد فى القرن السادس عشر الميلادى حينما أكد فى إطار فلسفته عن الأحزاب بأنها وجدت وسوف توجد .

" They were and they will be "

هذا ولم تكن الأحزاب والفرق السياسية فى الإسلام شراً على طول الخط بل كان من ورائها الخير أحيانا كل الخير وهذا هو الدكتور أحمد شلبى يتحدث فى موسوعته عن التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية فيقول عن أفريقيا : « وأصبح الإسلام بذلك دين القارة وقد جاء فى تقديم البلدان الإسلامية أن أفريقية هى القارة الوحيدة التى يمكن تسميتها بالقارة المسلمة من بين قارات العالم ... » .

وحينما يتحدث بعد ذلك عن إنتشار الإسلام فى هذه القارة يذكر الأحزاب كواحد من الأسباب الهامة فى هذا الشأن فيقول :

« ويعد بعد الإسلام عامل سياسى دفع إلى الهجرة كذلك كالأحزاب والفرق الإسلامية وكسقوط دولة وقيام أخرى فإن ذلك جعل الفرق أو بعض القبائل تفر من إضطهاد واقعى أو محتمل وتتخذ طريقها إلى أفريقية » .

وصدق الله العظيم : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » .

(سورة البقرة : آية ٢١٦)

وليس كل خلاف فى الرأى يفسد المودة ويثير الفتن والبغضاء ، وكما وجدت المذاهب والمدارس الفقهية المختلفة وبين أصحابها صفاء وعمار ، من الممكن أن توجد الأحزاب السياسية المختلفة وبين أعضائها فى صراعهم الحزبى ما اتفق على تسميته بالروح الرياضية والمنافسة الشريفة .

وفقهاؤنا الأجلاء سباقون فى هذا المضمار بأربعة عشر قرناً من الزمان .

فهذا هو الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقول فى الشافعى :

« ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعى رحمه الله تعالى » .

وكان يقول لولده أيضاً :

« يا بنى : كان الشافعى رحمه الله تعالى كالشمس للدنيا وكالعافية للناس » .

وكان الشافعى رضى الله عنه يقول فى الإمام مالك :

« إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب وما أحد أمنّ علىّ من مالك » .

(ب) مذهب الصحابى

والأدلة على حجية مذهب الصحابى أو قول الصحابى ثابتة بالنص - ومن ذلك :

١ — قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » .
(سورة التوبة ١١٩) .

٢ — وقوله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم » .

(سورة التوبة آية ١٠٠)

٣ — وقوله صلى الله عليه وسلم : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

٤ — وقوله صلى الله عليه وسلم :
« عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى » .

والاعتماد على مذهب الصحابى كأصل من أصول الفقه فى محاولة لمعرفة حكم الشريعة فى قضية الأحزاب السياسية الحديثة يحتم علينا التعرض بالبحث والنظر فى موقفين شهيرين من مواقف الصحابة فى عصر الخلافة الأول عصر الخلفاء الراشدين :

١ — موقف الإمام على بن أبى طالب مع الخوارج ومواقف مماثلة من بعده .

٢ — موقف الصحابة فى يوم السقيفة .

(١) موقف الإمام على بن أبى طالب مع الخوارج :

● لا يختلف اثنان على توافر الملكة الفقهية عند الصحابى الجليل ابن عم رسول الله ورابع الخلفاء الراشدين الإمام على بن أبى طالب وكان ظهور حزب الخوارج السياسى على عهده وبين يديه — فماذا كان موقفه منهم ؟ ! أى ماذا قال لهم ؟ ! وماذا فعل معهم ؟! يقول الطبرى :

وقال أبو مخنف : حدثنى الأجلح بن عبد الله ، عن سلمة بن كهيل عن كثير

إبن بهز الحضرمى قال : قام على فى الناس يخطبهم ذات يوم فقال رجل من جانب المسجد : لا حكم إلا لله . فقام آخر فقال مثل ذلك ثم توالى عدة رجال يحكمون . فقال على : الله أكبر . كلمة حق يلتمس بها باطل ! .

أما أن لكم عندنا ثلاثا ماصحبتمونا : لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ، ولا نمنعكم الفىء مادامت أيديكم مع أيدينا ولا نقاتلكم حتى تبدءونا .

ثم رجع إلى مكانه الذى كان فيه من خطبته » .

ويقول الماوردى «قد اعتزلت طائفة من الخوارج عليا عليه السلام بالنهروان فولى عليهم عاملا أقاموا على طاعته زمانا وهو لهم موادع إلى أن قتلوه فأنفذ إليهم أن سلموا إلى قاتله فأبوا وقالوا كلنا قتله قال فاستسلموا إلى أقتل منكم وسار إليهم فقتل أكثرهم » .

ذلك اجتهاد الامام على كرم الله وجهه قولا وفعلا . أن يترك المعارضين له فى الرأى يمارسون نشاطهم بحرية طالما كانوا مسالمين . بل ولى عليهم عاملا . ولنا أن نتصور ذلك فى حال لا يساورنا الشك فيه على أن المعارض فاته الصواب وولى الأمر على الحق ولا تنقصه المنعة والقوة للقضاء على هذا الحزب المعارض لو شاء . فما بالنا لو كان العكس وتبدل الحال وولى الأمر فاته الصواب والمعارض على الحق أفلا نسمح للمعارضين بممارسة نشاطهم فى حرية تامة طالما كانوا مسالمين ؟ .

● وماكان من الإمام على بن أبى طالب مع الخوارج تكرر من خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز .

يقول الطبرى « وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى أن الذى خرج على عبد الحميد بن عبد الرحمن بالعراق فى خلافة عمر بن عبد العزيز شوذب — واسمه بسطام من بنى يشكر — فكان مخرجه بجوخى فى ثمانين فارسا أكثرهم من ربيعة فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد :

ألا تحركهم إلا أن يسفكوا دماً أو يفسدوا فى الأرض . فإن فعلوا فحل بينهم وبين ذلك . وانظر رجلا صليبا حازماً فوجهه إليهم ووجه معه جنداً وأوصه بما أمرتك به .

فعقد عبد الحميد لمحمد بن جرير بن عبد الله البجلى فى ألفين من أهل الكوفة وأمره بما أمره به عمر . وكتب عمر إلى بسطام يدعوه ويسأله عن مخرجه ؟

فقدم كتاب عمر عليه وقدم عليه محمد بن جرير فقام بإزائه لايحركه ولا يهيجه . فكان فى كتاب عمر إليه :

أنه بلغنى أنك خرجت غضباً لله ولنبيه ولست بأولى بذلك منى فهلم أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرنا .

فلم يحرك بسطام شيئاً وكتب إلى عمر :

قد أنصفت وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك فقال أبو عبيدة : أحد الرجلين اللذين بعثهما شوذب إلى عمر ممزوج مولى بنى شيبان ، والآخر من صليبة بنى يشكر — قال : فيقال : أرسل نفراً فيهم هذان ، فأرسل إليهم عمر : أن اختاروا رجلين ، فاختاروهما ، فدخلا عليه فناظراه » .

(ب) وكذلك كان موقف عبد الله بن يزيد من حزب الشيعة حينما بلغه نبأ ظهوره لأول مرة ، وعبد الله بن يزيد أمير الكوفة من قبل عبد الله بن الزبير . جاءه يزيد بن الحارث بن يزيد بن رويم الشيبانى يخبره بما يتناقله الناس عن شيعة خارجة عليه بعضها بقيادة ابن صرد والبعض الآخر مع المختار بن أبى عبيد . يقول الطبرى :

« فقال عبد الله بن يزيد : الله بيننا وبينهم إن هم قاتلونا قاتلناهم ، وإن تركونا لم نطلبهم . حدثنى ما يريد الناس ؟ قال يذكر الناس أنهم يطلبون بدم الحسين ابن على ، قال : فأنا قتلت الحسين !! لعن الله قاتل الحسين .

وكان سليمان بن صرد وأصحابه يريدون أن يثبتوا بالكوفة فخرج عبد الله ابن يزيد حتى صعد المنبر ، ثم قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فقد بلغنى أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألت عن الذى دعاهم إلى ذلك ما هو ؟ فقيل لى : زعموا أنهم يطلبون بدم الحسين بن على فرحم الله هؤلاء القوم . قد والله دللت على أماكنهم وأمرت بأخذهم ، وقيل :

إبدأهم قبل أن يبدءوك فأبيت ذلك فقلت : إن قاتلونى قاتلتهم ، وإن تركونى لم أطالهم وعلام يقاتلونى ؟ فوالله ما أنا قتلت حسيناً ولا أنا ممن قاتله ، ولقد أصبت بقتله رحمة الله عليه ! فإن هؤلاء القوم آمنون ، فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ليسيروا إلى من قاتل الحسين فقد أقبل إليهم وأنا لهم على قاتله ظهير » .

ومما يذكر من موقف الإمام على بن أبى طالب مع الخوارج فى رواية أخرى أنه أرسل إليهم الصحابى المعروف ابن عباس ليناظرهم فرجع منهم حوالى أربعة آلاف وكانوا نحو ثمانية آلاف ، فبعث الإمام على إلى الباقين أن ارجعوا وتوبوا فأبوا فأرسل إليهم بقوله :

« كونوا حيث شئتم وبيننا وبينكم ألا تسفكوا دما حراما ولا تقطعوا سبيلا ولا تظلموا أحداً ، فإن فعلتم نبذت الحرب معكم » . كما قال لهم :

« لا نبدأ بقتال ما لم تحدثوا فساداً » .

(٢) موقف الصحابة فى يوم السقيفة :

يوم السقيفة هو اليوم الذى عقد فيه أخطر مؤتمر سياسى فى الإسلام عقب وفاة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام .

المكان سقيفة بنى ساعدة . والزمان عقب وقوع الوفاة مباشرة ولحظة انشغال أهل البيت بتجهيزه عليه السلام . والحاضرون السابقون الصادقون من المهاجرين والأنصار وفيهم من فيهم من صحابة رسول الله ومن المبشرين بالجنة ومن كتاب الوحى وأبطال بدر .

والمهمة التى عقد المؤتمر من أجلها وعلى جناح السرعة رغم حساسية الموقف هى مهمة سياسية بحتة يهدف تحديد السلطة السياسية العليا ولمن تؤول بعد غياب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أحق وأولى بخلافته فى قيادة المسلمين فيؤتمن على تدبير أمور دينهم ودنياهم .

ورغم اتحاد الكل على المبدأ الواحد واتفاقهم جميعاً على العقيدة الواحدة عقيدة الإسلام المصفى فى أول عهده بغير فرق أو شيع ، فإن مجرد البحث فى شخص من

تؤول له السلطة والزعامة كان كافياً وبالفطرة لظهور أحزاب سياسية بين عمالقة المتفوقين والمتخرجين حديثاً من مدرسة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام . لم تكن أحزاباً عقائدية كالتى ظهرت فيما بعد مع ظهور الخوارج والشيعة . ولكن الأحزاب فى يوم السقيفة كانت من هذا النوع الذى يعد بلغة العصر الحديث أحزاباً سياسية شخصية يلتقى فيها كل حزب حول شخصية عامة يراها أحق بالقيادة والزعامة ويزكى كل فريق صاحبه ويعمل من أجل كسب واقناع أكبر عدد من الأصوات بحجته حتى يفوز بالبيعة والتأييد من الأغلبية الغالبة .

وأهم الأحزاب والآراء والحجج التى ظهرت فى يوم السقيفة وبسببه كانت على النحو التالى :

(أولا) حزب الأنصار :

وكان على رأسهم سعد بن عبادة وابنه قيس والحباب بن المنذر بن يزيد . وقال سعد بن عبادة قولا أذاعه على الناس ابنه قيس جاء فيه :

« يا معشر الأنصار إن لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث فى قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأوثان فما آمن به من قومه إلا قليل والله ما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كانوا يدفعون عن أنفسهم حتى أراد الله تعالى لكم الفضيلة وساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة ورزقكم الايمان به وبرسوله صلى الله عليه وسلم والمنع له ولأصحابه والاعزاز لدينه والجهاد لأعدائه فكنتم أشد الناس على من تخلف عنه منكم ، وأثقله على عدوكم من غيركم حتى استقاموا لأمر الله تعالى طوعاً وكرهاً وأعطى البعيد المقادة صاغراً داحراً حتى أثخن الله تعالى لنبيه بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفاه الله تعالى وهو راض عنكم قرير العين فشدوا أيديكم بهذا الأمر فإنكم أحق الناس وأولاهم به » .

وكان من الحاضرين بعد سماع حجة سعد بن عبادة وقبل سماعهم لحجج المهاجرين أن أجابوا سعداً بقولهم :

« أن قد وفقت فى الرأى وأصبت فى القول ولن نعدو ما رأيت توليتك هذا الأمر فأنت مقنع ولصالح المؤمنين رضا » .

ومما قاله الحباب بن المنذر بن زيد الأنصارى :

« يا معشر الأنصار أملكوا عليكم أيديكم ، فإنما الناس فى فيئكم وظلالكم ، ولن يجير مجير على خلافكم ، ولا يصدر الناس إلا عن رأيكم أنتم أهل العز والثروة وأولو العدد والنجدة وإنما ينظر الناس ما تصنعون فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وتقطع أموركم وأنتم أهل الإيواء والنصرة وإليكم كانت الهجرة ولكم فى السابقين الأولين مثل ما لهم وأنتم أصحاب الدار والايمان من قبلهم والله ما عبدوا الله علانية إلا فى بلادكم ولا جمعت الصلاة إلا فى مساجدكم ولا دانت العرب للإسلام إلا بأسيافكم فأنتم أعظم الناس نصيباً فى هذا الأمر ، وإن أبى القوم فمنا أمير ومنهم أمير » .

كان هذا هو رأى الأنصار أنهم أحق بأن يؤول الأمر إليهم وإلى سعد بن عبادة بالذات كبير الخزرج إلا أنه كان هناك فى صفوف حزب الأنصار ما يمكن أن يسمى بلغة العصر أجنحة غير متفقة فى الرأى مع جماعة سعد بن عبادة لعوامل قبلية ومنافسات وحزازات عائلية قديمة .

(١) جناح بشير بن سعد :

كان بشير بن سعد من سادات الخزرج وفى نفسه حسد لسعد بن عبادة ، ومما قاله بشير :

« يا معشر الأنصار أما والله لئن كنا أولى الفضيلة فى جهاد المشركين والسابقة فى الدين ما أردنا إن شاء الله غير رضا ربنا وطاعة نبينا والكرم لأنفسنا وما ينبغى أن نستطيل بذلك على الناس ، ولا نبتغى به عوضاً من الدنيا فإن الله تعالى ولى النعمة والمنة علينا بذلك ثم أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رجل من قريش وقومه أحق بميراثه وتولى سلطانه وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبداً ، فاتقوا الله ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم » .

وسبق بشير إلى مبايعة أبى بكر فقال له الحباب بن المنذر :

« يا بشير بن سعد عقك عقاق ما اضطرك إلى ما صنعت ؟ حسدت ابن عمك على الإمارة ! » قال بشير : « لا والله ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقا لهم » .

(٢) جناح الأوس : والعداء بين الأوس والخزرج قديم ومشهور فلما رأت الأوس اجتماع كلمة الخزرج على تأمير سعد بن عبادة قالوا لبعضهم وعلى رأسهم أسيد بن حضير رضى الله عنه :

« لئن وليتموها سعدا عليكم مرة واحدة ، لا زالت لهم بذلك عليكم الفضيلة ولا جعلوا لكم نصيبا فيها أبدا فقوموا فبايعوا أبا بكر رضى الله عنه » . وسارعوا فعلا إلى مبايعة أبى بكر حتى شق على الحباب بن المنذر فقام إلى سيفه ليضربهم به فأخذوه منه فجعل يضرب وجوه القوم بثوبه .

ثانيا : حزب المهاجرين :

وكان على رأسهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح . قال أبو بكر « إن الله جل ثناؤه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق فدعا إلى الإسلام فأخذ الله تعالى بنواصينا وقلوبنا إلى ما دعا إليه فكنا معشر المهاجرين أول الناس اسلاما والناس لنا فيه تبع ـ ونحن عشيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن مع ذلك أوسط العرب انسابا ليست قبيلة من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة . وأنتم أيضا والله الذين آووا ونصروا وأنتم وزراؤنا فى الدين ووزراء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم أخواننا فى كتاب الله تعالى وشركاؤنا فى دين الله عز وجل وفيما كنا فيه من سراء وضراء والله ما كنا فى خير قط إلا كنتم معنا فيه فأنتم أحب الناس إلينا وأكرمهم علينا وأحق الناس بالرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لأمر الله عز وجل ولما ساق لكم ولاخوانكم المهاجرين رضى الله عنهم وأحق الناس فلا تحسدوهم وأنتم المؤثرون على أنفسهم حين الخصاصة والله ما زلتم مؤثرين إخوانكم من المهاجرين وأنتم أحق الناس ألا يكون هذا الأمر واختلافه على أيديكم وأبعد أن لا تحسدوا إخوانكم على خير ساقه الله تعالى إليهم . وإنما أدعوكم إلى أبى عبيدة أو عمر وكلاهما قد رضيت لكم ولهذا الأمر وكلاهما له اهل » .

وقال عمر وأبو عبيدة رضى الله عنهما : « ما ينبغى لأحد من الناس أن يكون فوقك يا أبا بكر أنت صاحب الغار ثانى اثنين وأمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة فأنت أحق الناس بهذا الأمر » .

ولما قام الحباب بن المنذر بن الجموح وقال كلاما جاء فيه : « فمنا أمير ومنكم أمير » .

وقف عمر بن الخطاب وقال : « هيهات لا يجتمع اثنان فى قرن . والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم . ولكن العرب لا تمنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم . ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين . من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط فى هلكة » .

وقال أبو عبيدة بن الجراح : « يا معشر الأنصار كنتم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير » .

وهكذا التقت كلمة الحاضرين من المهاجرين على أن الأمر لهم ووجدوا بشهادة عمر وأبى عبيدة أن أبا بكر أهل لها .

إلا أنه ظهر فيما بعد بين المهاجرين ما يمكن أن يسمى بلغة العصر الحديث أجنحة لا تتفق مع غالبية حزب المهاجرين فيما ذهبت إليه من رأى وأهمها :

(١) جناح بنى هاشم : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل العباس ابن عبد المطلب أبا بكر : هل أوصاك رسول الله بشىء ؟ فقال أبو بكر : لا . فسأل العباس عمر بن الخطاب نفس السؤال فقال عمر : لا فقال العباس لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه : أبسط يدك أبايعك فيقال : عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبايعك أهل بيتك فإن هذا الأمر إذا كان لم يقل . فقال له على كرم الله وجهه : « ومن يطلب هذا الأمر غيرنا ؟ » .

وقال على بن أبى طالب رداً على بيعة المهاجرين لأبى بكر : « لا أبايعكم وأنا أحق بهذا الأمر منكم وأنتم أولى بالبيعة لى . أخذتم هذا الأمر من الأنصار

واحتججتم عليه بالقرابة من النبى صلى الله عليه وسلم وتأخذونه منا أهل البيت غصبا . ألستم زعمتم للانصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم ! فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم الإمارة . فإذاً أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار . نحن أولى برسول الله حيا وميتا فأنصفونا إن كنتم تؤمنون وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون » .

وقال أبو عبيدة الجراح فى هذا المقام : « يا بن عم إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالامور ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق فى فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك » .

ومما قاله على : « الله الله يا معشر المهاجرين لا تخرجوا سلطان محمد فى العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم ولا تدفعوا أهله عن مقامه فى الناس وحقه . فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به لأنا أهل البيت ونحن أحق بهذا الأمر منكم ماكان فينا القارىء لكتاب الله الفقيه فى دين الله العالم بسنن رسول الله المضطلع بأمر الرعية الدافع عنهم الأمور السيئة القاسم بينهم بالسوية والله أنه لفينا فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحق بعدا » .

وقال بشير بن سعد الأنصارى تعليقا على هذا القول من على كرم الله وجهه : « لو كان هذا الكلام سمعته الانصار منك يا على قبل بيعتها لأبى بكر ما اختلف عليك اثنان » .

ومما قاله الأنصار لفاطمة بنت رسول الله : « لو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبى بكر ما عدلنا به » .

وكان رد على بن أبى طالب على ذلك « أفكنت أدع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته لم أدفنه وأخرج أنازع الناس سلطانه ؟ » .

ومما قاله عمر بن الخطاب لعلى فى أمر بيعة أبى بكر : « إنك لست متروكا حتى

تبايع ». فقال له علي « أحلب حلبا لك شطره وأشدد له اليوم أمره يردده عليك غداً . » وقال أيضا « والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه » فرد أبو بكر « فإن لم تبايع فلا أكرهك » .

وعن الزهري أن عليا كرم الله وجهه لم يبايع أبا بكر لمدة ستة أشهر وكذلك لم يبايعه أحد من بني هاشم إلا بعد مبايعة علي له .

وقال علي في مبايعته أخيرا لأبي بكر « لم يمنعنا أن نبايعك يا أبا بكر انكار لفضيلتك ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك . ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقا فاستبددتم به علينا » .

كان رد أبي بكر على ذلك « فوالله لقرابة رسول الله أحب إلى أن أصل من قرابتي ، وإني والله ما ألوت في هذه الأحوال التي كانت بيني وبينكم غير الخير ولكني سمعت رسول الله يقول : (لا نورث ما تركناه فهو صدقة إنما يأكل آل محمد من هذا المال) ، وإني أعوذ بالله لا أذكر أمرا صنعه محمد رسول الله إلا صنعته فيه إن شاء الله » .

ولما تمت البيعة لأبي بكر جعل يقيل الناس ويستقيلهم ثلاثة أيام وما كان يقوله في ذلك : « قد أقلتكم في بيعتي هل من كاره ؟ هل من مبغض » ؟ وكان رد علي على ذلك :

« والله لا نقيلك ولا نستقيلك أبدا قد قدمك رسول الله صلى الله عليه وسلم لتوحيد ديننا من ذا الذي يؤخرك لتوجيه دنيانا » .

(٢) جناح الأمويين : جاء أبو سفيان إلى علي بن أبي طالب وقال له :

« ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش ، والله إن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجالا » فرد عليه علي بقوله :

« يا أبا سفيان طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضره بذلك شيئا ! إنا وجدنا أبا بكر لها أهلا » .

وفى رواية أخرى أقبل أبو سفيان يقول :

« والله إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم ! يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم ! أين المستضعفان أين الأذلان على والعباس ؟ » وقال « يا أبا الحسن أبسط يدك حتى أبايعك » فزجره على وقال :

« إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة وأنك والله طالما بغيت بالإسلام شراً . لا حاجة لنا فى نصيحتك » .

ولا عجب فهذا الجناح بما يحمله من بذور الفتنة والأثرة والنعرة القبلية هو الذى استقل فيما بعد كحزب ملكى أموى فرضها ملكاً يورث على أسنة الرماح بعد ما كانت خلافة عادلة تقوم على الشورى وحرية الرأى والحوار .

تعقيب :

إن الباحث المتأمل ليوم السقيفة يستطع أن يعتبره السند المجسم والتطبيق العملى لمذهب الصحابى فيما يمكن الحكم به على نظام الأحزاب السياسية الحديثة من وجهة نظر الشريعة الإسلامية فما وقع فى هذا اليوم ومنذ أربعة عشر قرناً من الزمان لا يختلف فى كثير أو قليل عن الصورة التى يرجوها ويسعى لها المؤيدون المعتدلون لنظام الأحزاب السياسية الحديثة .

وأهم الشواهد على ذلك :

أولا : يرى المؤيدون لنظام الأحزاب وفلاسفة النظام أن الأحزاب السياسية فطرة وسنة من سنن الحياة الاجتماعية والنفس البشرية الطبيعية وأنها أى الأحزاب وجدت وسوف توجد شئنا أم لم نشأ وما وقع يوم السقيفة خير شاهد على ذلك فقد وجد الخلاف فى الرأى والانشقاق إلى أحزاب تقارع ويجادل بعضها البعض بالحجة وذلك بين خير البشر من صحابة وتلاميذ رسول الله وفى أحرج اللحظات ساعة تجهيزه عليه أفضل الصلاة والسلام .

ثانياً : لا يشترط لقيام الأحزاب السياسية وجود اختلاف عقائدى جوهرى فقد تنشأ الأحزاب بين جماعة موحدة عقائدياً لتحقيق مهمة انتقال السلطة بهدوء ويسر وأمانة وعدالة وأكبر حزبين فى الولايات المتحدة الأمريكية الجمهورى والديمقراطى لا يختلفان على الهدف أو العقيدة وأحزاب يوم السقيفة من هذا

النوع فلم يكن هناك خلاف على العقيدة ، وإنما على شخص من هو أحق بالخلافة والرئاسة وذلك وحده يكفى لقيام الأحزاب .

وقد يقول البعض ولماذا لا يعهد الحاكم أو الخليفة لمن بعده ويقطع بذلك خط الرجعه على قيام الأحزاب ؟ ! .

ونقول رداً على ذلك أن الترك مع قيام الأحزاب أخف وطأة وأحمد سيرة من العهد مع عدم قيامها .

وقد ترك رسول الله وكان يوم السقيفة بأحزابه مثلا يضرب على مدى التاريخ فى العمل بحرية الرأى وانتقال السلطة بأخف قدر من الضرر .

أما العهد وكبت الأحزاب فقد رأينا ما يعقبه من أضرار فادحة جسام على عهد الامويين والعباسيين فيما بعد . ولا يقاس الأمر بالفترة الذهبية القصيرة المدى أيام الخلفاء الراشدين . وقد عهد الصديق أبو بكر وهو من هو مكانة فى قلوب المسلمين وعند الله ورسوله وعهد لمن ؟ لجبار الجاهلية وعملاق الإسلام عمر . ومع ذلك لما خرج عمر على المسلمين بكتاب أبى بكر وجد من بينهم من يقول له :

— ما فى الكتاب يا أبا حفص ؟ قال : لاأدرى ولكنى أول من سمع وأطاع . فقال له الرجل :

لكننى والله أدرى ما فيه : أمرته عام أول وأمرك العام .

ويوم بيعة أبى بكر قال على بن أبى طالب لعمر :

« أحلب حلباً لك شطره وأشدد له اليوم أمره يردده عليك غداً .

هذا فى العهد على زمان خير خلق الله فما بالنا به اليوم وطبيعة العصر لاتقبله فى مكان أو زمان وإنما الترك هو المقبول والمستساغ ويكفى أن الترك كان سنة المعصوم خاتم الأنبياء نبى كل البشر فى كل مكان وزمان .

ثالثاً : أن ما تقوم به الأحزاب السياسيه الحديثة من خطوات تكنيكية للفصل فى مصير السلطة هو نفس ما تم يوم السقيفة مع الفارق فى طبيعة العصر . فلكل حزب خطباؤه وزعماؤه وأنصاره والكلمة المقنعة والحجة الدامغة على مشهد ومرأى من الناس هى الحكم أولا وأخيراً فى تقرير المصير حيث يتقدم جمهور

الناخبين فى النهاية إلى صناديق الاقتراع ليدلى كل بصوته فى حرية مطلقة الأمر الذى يقابله يوم السقيفة تكاثر الناس على البيعة عن اقتناع بعد سماعهم لشتى وجهات النظر عند كل فريق .

رابعاً : حرية وجود جناح أو حزب معارض دون قهره وجبره مكفولة . فذلك جناح الهاشميين وعلى رأسه على بن أبى طالب ورغم شدة عمر معه وقوله لعلى : « إنك لست متروكاً حتى تبايع » وتهديده له بضرب عنقه أو حرق داره حرصاً منه على وحدة الكلمة إلا أن أبا بكر الصديق صاحب الأمر وخليفة رسول الله كان يقول لعلى :

« فإن لم تبايع فلا أكرهك » .

ورفض سعد بن عبادة أن يبايع أبا بكر طيلة حياته وقال عمر للناس وهم يكادون أن يطأوا سعداً لحظة البيعة « اقتلوه قتله الله » .

إلا أن أبا بكر رد عليه « مهلا يا عمر ! الرفق هنا أبلغ » .

(جـ) المصالح المرسلة

المصالح المرسلة : وهى مصالح لم يقم دليل شرعى على اعتبارها والعمل بها أو إلغائها وتركها ويسميها البعض بالاستصلاح « أى العمل بالمصلحة » ومحل العمل بها باب المعاملات . أما العبادات والعقوبات فلا محل للقول بالمصلحة فيها .

وحجية العمل بالمصلحة المرسلة :

أولا : أن الوقائع والأحداث متجدده ومتغيرة وغير متناهية ولو لم يؤخذ بالمصلحة المرسلة لعجزت الشريعة عن مسايرة الأحداث فى مختلف الاماكن والأزمنة وهى خاتمة الشرائع .

ثانيا : أكثر أحكام المجتهدين من الصحابة والتابعين بنى على المصلحة المرسلة كمحاربة مانعى الزكاة ـ وتعطيل حد السرقة عام المجاعه ـ وقتل الجماعة بالواحد ـ وجمع القرآن ـ وطرق اختيار الخليفة فى عصر الخلفاء الراشدين وقال بعض المجتهدين بحق ولى الأمر فى فرض ضريبة على الأغنياء إذا لزم الأمر واقتضت الضرورة بناء على المصلحة المرسلة .

ويقول ابن عقيل :

« السياسة كل فعل يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يصفه الرسول صلى الله عليه وسلم ولا نزل به وحى ومن قال لا سياسة إلا بما نطق به الشرع فقد غلط وغلط الصحابة فى شريعتهم » .

ولكى تعتبر المصلحة المرسلة مصدرا من مصادر التشريع وجب أن تتوافر فيها الشروط الآتية : ـ

اولا : أن يتحقق من ورائها جلب مصلحة أو درء مفسدة .

ثانيا : أن يشمل نفعها أكبر عدد من الناس فتكون كلية لا جزئية .

ثالثا : ألا يتعارض التشريع المبنى عليها مع حكم ثبت بالنص أو الاجماع .

رأ كثر الذين يرفضون النظام الحزبى الحديث من رواد الفكر الإسلامى إنما يقفون هذا الموقف أصلا لا عتقادهم بأن الأحزاب السياسية تؤدى إلى الفرقة والخصام وتفتيت وحدة الجماعة وتقسيمها إلى شيع وأحزاب متنافرة إلا أن الدارس العلمى للنظام الحزبى الحديث يستطيع ببساطة وبأقل جهد ممكن التحقق مما تقدمه الاحزاب السياسية من وظائف أساسية بل وحيوية فى بعض الأحيان تعود على الناس بجلب المصالح ودرء المفاسد غاية ما يقصده الشارع من تشريعه .

ومن المصالح والفوائد التى تحققها الأحزاب ما هو ضرورى تتوقف عليه حياة الناس الدينية والدنيوية وما هو حاجى يحتاج إليه الناس فى رفع الحرج عنهم وما هو تحسينى يهدف إلى تحقيق الكمال الاخلاقى والأخذ بأحسن العادات نسبيا فى شئون السياسة وخلافاتها بين الحكام والمحكومين .

١ — الأحزاب السياسية والمصالح الضرورية : والمصالح الضرورية هى المصالح التى تتوقف عليها حياة الناس الدينية والدنيوية وتنحصر باتفاق المجتهدين فى المحافظة على خمس: الدين والنفس والعقل والنسل والمال وجاء وقت تعرضت فيه جميعها للضياع وعلى مستوى شعوب بأسرها فقد ابتليت أكثر بلدان العالم العربى والإسلامى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين باستعمار غاشم من بعض حكومات الغرب الجائرة المستبدة وهدد الناس فى دينهم ودنياهم ولم تكن الجيوش الوطنية تغنى شعوبها فى قليل أو كثير فالمستعمر أسبق تكنولوجيا وعلميا وأكثر عدة وعتادا وكانت الأحزاب السياسية بوسائلها السرية والعلنية من خــلال ونشرات وخطابة ومؤتمرات وندوات هى الأمل المشرق والحل الناجح والوحيد فى إثارة الشعور القومى وبعث اليقظة الوطنية من أجل تحرير الأرض وطرد المستعمر الدخيل .

ولم يتحرر شعب من شعوب العالم الثالث فى العصر الحديث إلا ووراء تحرره حزب سياسى وزعيم حزب سياسى استقطب مشاعر المواطنين ونظم حركتهم وحدد أهدافهم ومطالبهم .

فهل يختلف اثنان عقلا أو شرعا على أهمية بل وضرورة دور الأحزاب الوطنية تجاه مشكلة الاستعمار ؟ .

وهل قال أحد المجتهدين بحرمة أحزاب الاستقلال والتحرير ؟! كيف وقد كان أئمة المجتهدين فى العصر الحديث روادا وأعضاء بارزين فى مثل هذه الأحزاب !

وهل ارتكب الإمام محمد عبده مفتى الديار حراما بانضمامه إلى الحزب الوطنى القديم بل وكان واضع برنامجه بنفسه .

وما الذى يقال شرعا عن دور مصطفى كامل فى الحزب الوطنى الجديد وسعد زغلول فى حزب لوفد المصرى . ودور حزب جبهة التحرير الوطنى الجزائرى فى الجزائر والحزب الدستورى ودوره فى تحرير تونس وحزب الاستقلال ودوره فى تحرير المغرب ؟

٢ — الأحزاب السياسية والمصالح الحاجية :

لا يختلف اثنان من المؤرخين والدارسين على أنه ماسل سيف فى الإسلام على أمر من أمور المسلمين بمثل ماكان على أمر الخلافة كمشكلة سياسية . وكانت وما زالت مشكلة انتقال السلطة فى شتى الأزمنة والأمكنة أكثر الأسباب إراقة للدماء ومثاراً للخلاف .

والأحزاب السياسية الحديثة كفن من فنون السياسة أقدرها جميعا على تحقيق أكبر قدر ممكن من الاستقرار السياسى . وانتقال السلطة عن طريق صراع حزبى عادل ومتكافىء الفرص أخف السبل وطأة وأكثرها تحقيقا لرفع الحرج عن الناس ذلك المقصد الثانى من مقاصد الشريعة الغراء .

فلا يغيب عنا طغيان النظم الملكية الوراثية وقد أوشكت على الانقراض والزوال نهائيا كما لا يفوتنا ما تفرضه النظم الديكتاتورية والانقلابات العسكرية من كبت للحريات وما تؤدى إليه من تفشى الدسائس وتكرار المؤامرات وعدم الاستقرار السياسى حتى أن بعض هذه النظم الديكتاتورية رغبة منها فى إطالة عمرها السياسى تلجأ من باب الاستهلاك المحلى والتمويه على العامة إلى افتعال صورة من صور النظام الحزبى كبدعة نظام الحزب الواحد أو كإنشاء أحزاب حكومية من موقع السلطة الأمر الذى إن دل على شىء فإنما يدل على اعتراف هذه النظم بأهميـــة الأحزاب السياسية الحديثة كدعامة أساسية من دعامات تحقيق الحرية السياسية .

وعلى من ينشدون رفع الحرج عن الناس ويرفضون نظام الأحزاب السياسية التفكير أولا فيما يقدمونه من بديل والتخلص مقدماً مما تحمله كلمة أحزاب فور سماعها من مدلول لفظى يوحى بالانشقاق والتحزب أكثر مما يوحى بما يحمله حديثاً كفن من فنون السياسة له دوره الحيوى إزاء مشكلة انتقال السلطة وسائر مشاكل الفقه الدستورى المعاصر .

٣ — المصالح التحسينية :

الأحزاب السياسية مدارس الشعوب فى شئون السياسة وعلومها تعمل على توعية الجماهير بمشاكلهم السياسية المتجددة وتنمية الحاسة السياسية لدى المحكومين كما تعمل على تخريج عدد من القادة السياسيين المؤهلين للحكم أكثر دماثة فى أخلاقهم وأقل ضراوة فى حدة صراعهم السياسى وأسرع من غيرهم فى الأخذ بأحسن العادات وأفضل القيم والآراء .

وخلاصة الرأى أنه من المصالح المرسلة قيام الشارع فى عصرنا بقبول النظام الحزبى الحديث مادامت الأحزاب تؤدى إلى جلب المصالح ودرء المفاسد وتحقق من المنفعة ما يماثل المصالح الضرورية والحاجية والتحسينية والتى سبق وأقرها الشارع بالنص .

أما ما يخرج من الأحزاب على النظام العام للإسلام فلا يسمح به ولا يرفض بسببه النظام الحزبى كلية بخيره وشره .

فلا يسمح فى ظل الإسلام بأحزاب تخرج فى أهدافها ومبادئها عن أصل من أصول الشريعة كالأحزاب الإلحادية كالشيوعية وغيرها كما لا يسمح فى ظل الإسلام بأحزاب تخرج فى تنظيمها ووسائلها عن روح الشريعة ونظامها كالأحزاب العسكرية والفاشية والإسلام يرفض أهل البغى والمحاربة .

ومن المصالح المرسلة قتال أبى بكر الصديق لمانعى الزكاة لما فى ذلك من هدم لأصل من أصول الشريعة ومبادئها .

ومنها عدم قتال الإمام على للخوارج ما لم يبدءوه بقتال بل وتوليته عليهم عاملا أقاموا على طاعته فترة من الزمان — أى أن الإمام رأى مسالمتهم ماداموا تنظيماً مسالماً وقتالهم ما تحولوا لتنظيم محارب .

(د) القيـاس

القياس لغة تقدير الشيء بشيء آخر كأن يقال قاس الثوب بالمتر .

كما يطلق على التسوية بين الشيئين كأن يقال يقاس فلان بفلان .

والقياس فى اصطلاح الأصوليين : الحـاق أمر لم يرد حكمه فى الكتاب أو السنة أو الإجماع بأمر ورد حكمه فى أحدها لاشتراكهما فى علة الحكم .

ولكى نقول بالقياس يلزم توافر أمور أربعة هى « أركان القياس » .

١ — فرع أو مقيس .

٢ — أصل أو مقيس عليه .

٣ — علة مشتركة بينهما .

٤ — حكم للاصل أو المقيس عليه يظهر فى المقيس أو الفرع .

ويقول الشيخ زكريا البرديسى فى شروط القياس وفى حكم الأصل :

« أن يكون حكم الأصل شرعياً عملياً فالقياس الفقهى لا يكون إلا فى الأحكام العملية لأن هـذه هى موضوع الفقه بشكل عام فإذا كان حكم الأصل اعتقادياً لا يجوز القياس » .

إلا أنه مما جاء فى باب القياس للشيخ زكى الدين شعبان قوله :

« إن المسلمين اختلفوا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن يكون خليفة لرسول الله ثم استقر رأيهم على مبايعة أبى بكر بالخلافة مستندين فى ذلك على القياس وهو قياس الخلافة على الإمامة فى الصلاة ولذا قال بعضهم — رضيه رسول الله لأمر ديننا أفلا نرضاه لدنيانا — » .

والاستعانة بالقياس كأصل من أصول الفقـه لإثبات موقف الشريعـة من قضية الأحزاب ربما كان ممكناً فى حالة خاصة ومن زاوية معينة ذلك فيما لو سأل سائل أهل الرأى والفتوى :

ما الحكم لو تقدم أهل الكتاب كالمسيحيين بطلب الموافقة لهم على تكوين

حزب سياسى فى بلد إسلامى يطلقون عليه اسم الحزب الديمقراطى المسيحى ملتزمين فى ذلك بالشرعية القائمة وعدم الخروج على النظام العام المعمول به فى الدولة ! !

« ألا يكون ذلك حقاً لهم تبيحه الشريعة ؟ .

إن الإسلام منحهم حرية العقيدة الدينية فهل يحرم عليهم الحرية السياسية والدين أشمل من السياسة ؟

وفى ذلك ألا يمكننا اعتبار العقيدة الدينية الأصل المقيس عليه والحرية السياسية الفرع أو المقيس والعلة المشتركة بينهما حرية الرأى وحسن معاملة الأقليات والحكم الإباحة .

ولو صح ذلك لكان فيه الاعتراف الكافى والتسليم بتعدد الأحزاب من وجهة نظر الشريعة حتى ولو كان المسلمون جميعهم متحدين فى حزب واحد .

وبالعقل والشرع والفطرة تعددت الأديان فى ظل شريعة العدل وحرية الرأى وحسن معاملة الأقليات وعدم الإكراه فى الدين فكيف لا تتعدد الأحزاب فى ظل شريعة كهذه وفى نظر نظام كالإسلام . ؟

إن القول بقياس الخلافة على الإمامة يجعلنا فى قضية الحزبية نطرح سؤال قياس تعدد الأحزاب على تعدد الأديان .

والأمر من قبل ومن بعد مجرد تساؤلات يحكم فيها كبار الأئمة من فقهاء المسلمين مستعينين فى ذلك بأساتذة القانون العام وأحدث ما وصل إليه علم الدستورى والنظم السياسية .

الفصل الثاني

التطور التاريخي للنظام الحزبي في الإسلام

المبحث الأول

الفرق الإسلامية قديمـــا

(أ) الشيعه

أقدم المذاهب السياسية الإسلامية وكان أول ظهورهم كحزب سياسى فى الايام الأخيرة من عصر عثمان رضى الله عنه وقـــد نمت الفكرة فى مصر وترعرعت فى العراق وأهم أسباب انتشارهم فى العراق بالذات :

١ — إقامة على بن أبى طالب مدة خلافته بالعراق .

٢ — كان العراق وقتها ملتقى الحضارات القديمة والدراسات العلمية .
وقوام مذهبهم قول ابن خلدون فى مقدمته عن رأيهم فى الإمامة :

« ان الإمامـة ليست من مصالح العامـة التى تفوض إلى نظر الأمـة ويتعين القائم فيها بتعيينهم بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبى اغفالها وتفويضها إلى الأمة بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوما عن الكبائر والصغائر » .

وأخذت فرق الشيعة من الأفكار الفارسية الكثير كنظام الملك الوراثى ويعتقد البعض بأن فرق الشيعة أخـذت من اليهودية أكثر مما أخـذت من الفارسية .

وجميعهم يتفقون على أن عليا بن أبى طالب هو الخليفة المختار من النبى صلى الله عليه وسلم وأنه أفضل الصحابة وأحقهم بالخلافة بعد رسول الله هـذا فى نظر المعتدلين منهم .

فرق المذهب الشيعى :

أولا : الفرق المعتدلة

١ — الكيسانية:

أتباع المختار بن عبيد الثقفى وكان من الخوارج ثم صار من الشيعة والكيسانية لفظاً نسبة إلى كيسان وقيل أنه اسم المختار ويقال بل اسم مولى لعلى بن أبى طالب أو تلميذ لإبنه محمد بن الحنفية .

وادعى المختار لأهل الكوفة بأنه مبعوث محمد بن الحنفية إليهم ليثأر من قتلة الشهيد الحسين بن على وأطلق على محمد بن الحنفية اسم المهدى الوصى وقال للناس:

« لقد بعثنى المهدى الوصى . بعثنى إليكم أميناً ووزيراً وأمرنى بقتل الملحدين والطلب بدم أهل بيته والدفع عن الضعفاء » .

لم يترك المختار أحداً علم أنه اشترك فى قتل الحسين إلا وقتله فأحبه الناس والتفوا حوله وبخاصة الشيعة حتى تبرأ منه ابن الحنفية على الملأ لما لجأ إليه المختار من نشر بعض العقائد الشاذة والأوهام الكاذبة .

وجاءت نهاية المختار على يد الزبيريين إذ قتله مصعب بن الزبير من قبل أخيه عبد الله .

وأهم مبادئهم السياسية :

١ — لا يؤمنون بتاليه الأئمة وإنما يرفعون منزلة الأئمة إلى مرتبة النبوة .

٢ — طاعتهم للإمام واجبة فهو شخص مقدس ومعصوم من الخطأ .

٣ — يتعصبون لأبناء على ويرفعونهم لمرتبة النبوة

وأهم مبادئهم العقائدية :

١ — يؤمنون برجعة الإمام ولا يؤمنون بموت ابن الحنفية بل قالوا بغيبته وانتظاره وزعم كيسان إمامة محمد بن الحنفية وإقامته بجبل رضوى جبل على سبع مراحل من المدينة .

٢ — يؤمنون بتناسخ الأرواح .

٣ — يؤمنون بالبداء وهو أن الله سبحانه وتعالى يغير ما يريده تبعا لتغير علمه وأنه سبحانه وتعالى يأمر بالشيء ثم يأمر بخلافه وقد لجأ المختار للقول بالبداء كحيلة من اختراعه لخداع أتباعه إذ كان يدعى لهم علم ما يحدث من الأحوال بوحى يوحى إليه أو برسالة من الإمام فإذا لم توافق الحقيقة ما قال به رد على أتباعه بقوله : « قد بدا لربكم » .

٤ — يقولون بالظاهر والباطن : أى أن لكل شيء ظاهراً وباطناً ولكل مثال فى العالم حقيقة والسائد فى العالم من الحكم والأسرار يجتمع فى الشخص الانسانى وهو العلم الذى تميز به الامام عن سائر الخلق وقد آثر به الإمام على ابنه محمد بن الحنفية والذى يجتمع فيه هذا العلم هو وحده الامام بحق .

ولم يكن للكيسانية أتباع لهم شأن يذكر .

٢ — الزيدية :

أكثر فرق الشيعة اعتدالا وأقربهم الى الجماعة الإسلامية والجمهور . أتباع زيد بن على زين العابدين الذى خرج بالكوفة على هشام بن عبد الملك وكان مصيره القتل والصلب . وكان اماما فقيها له فى الفقه كتاب « المجموع » ومما يؤثر عنه ما دار بينه وبين هشام بن عبد الملك من حوار جاء فيه قوله لهشام :

« يا أمير المؤمنين ليس أحد يكبر على تقوى الله ولا يصغر دون تقوى الله » .

فقال له هشام :

« اسكت لا أم لك أنت الذى تنازعك نفسك فى الخلافة وأنت ابن أمة » .

فرد عليه زيد بقوله المشهور :

« إن الأمهات لايقعدن بالرجال عن الغايات ، وقد كانت أم إسماعيل أمة لأم اسحق فلم يمنعه ذلك أن يبعثه الله نبياً وجعله للعرب أبا فأخرج من صلبه خير البشرية محمداً صلى الله عليه وسلم فتقول لى هذا وأنا ابن فاطمة وابن على » .

والتزم زيد أكثر عهده بالطاعة وكان يكره الخلاف وممن أخذ عنه وتأثر به واصل بن عطاء والإمام أبو حنيفة الذى كان يتعصب لزيد ويحبه

وأهم مبادئهم السياسية :

١ — لم يرفعوا منزلة الأئمة لمرتبة النبوة وإنما الأئمة فى نظرهم أفضل الناس بعد رسول الله .

٢ — لايؤمنون بأن النبى صلى الله عليه وسلم قد حدد الإمام بالإسم ولكن أشار إليه بالوصف والأوصاف التى عرفت فى هذا الأمر عن رسول الله لاتتوافر إلا فى شخص الإمام على بن أبى طالب وهى : —

— أن يكون هاشمياً وورعاً وعالماً وسخياً وأن يخرج داعياً لنفسه .

٣ — خالف الإمام زيداً فى شرط الخروج والدعوة لنفسه كثيرون من أتباعه وعلى رأسهم أخوه محمد الباقر الذى قال له :

« وعلى قضية مذهبك والدك ليس بإمام . فإنه لم يخرج قط ، ولاتعرض للخروج » .

٤ — إشترطوا فى الإمام من بعد على أن يكون من ذرية فاطمة .

٥ — يرى الإمام زيد جواز إمامة المفضول وعلى ذلك أقر مذهبه إمامة الشيخين أبى بكر وعمر .

٦ — يرى الزيدية جواز مبايعة إمامين فى إقليمين على شرط توافر الأوصاف التى ذكروها عن الإمام فى كل منهما .

أهم مبادئهم العقائدية :

١ — لم يكفروا أحداً من أصحاب رسول الله وبخاصة أولئك الذين أقر إمامتهم علي بن أبي طالب كالشيخين أبي بكر وعمر .

٢ — يؤمنون بأن مرتكب الكبيرة مخلد في النار مالم يتب توبة نصوحاً .

● وبعد مقتل زيد قام يحيى على رأس الزيدية وقتل هو الآخر في أواخر عهد الأمويين ثم قام من بعده ولدا عبد الله بن حسن أستاذ أبي حنيفة وهما محمد الإمام الذي خرج بالمدينة وابراهيم الإمام الذي خرج بالعراق ، وتعرض بسبب خروجهما للأذى والاضطهاد الإمامان الجليلان أبو حنيفة في العراق ومالك في المدينة وانقسم الزيدية بعد ذلك إلى قسمين :

١ — المتقدمون : ويعترفون بإمامة الشيخين أبي بكر وعمر وعلى ذلك لا يعدون رافضة .

٢ — المتأخرون : وهم الرافضة الذين لا يجيزون إمامة المفضول ويرفضون إمامة الشيخين .

والمذهب الزيدي قائم حالياً باليمن وبصورة أقرب إلى الزيدية عند المتقدمين .

٣ — الإمامية :

وسموا الإمامية نسبة إلى الإمام محور البحث الرئيسي بين جميع فرق الإمامية وقد اتفقوا على أن الإمام لم يحدد بالأوصاف كما قال الإمام زيد بن علي زين العابدين بل عين بشخصه واسمه فقد عين الرسول عليا إماما من بعده وقام علي بتعيين من يخلفه بوصية من النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك يسمون بالأوصياء وحجتهم على تعيين علي إماما بعد رسول الله : —

١ — قوله صلى الله عليه وسلم « من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

٢ — قوله صلى الله عليه وسلم « أقضاكم علي » .

٣ — يقولون بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر على الإمام على أحداً من الصحابة على الإطلاق .

واتفق الإمامية على أن الاوصياء بعد على هم أولاده من فاطمة الحسن ثم الحسين ثم اختلفوا فى أمر الأوصياء من بعد الحسين إلى فرق كثيرة أهمها الاثنا عشرية والإسماعيلية . والإمامية أكثر مذاهب الشيعة القائمة حالياً وخصوصاً فى إيران والعراق وباكستان والهند . وأشهر فقهائهم محمد بن يعقوب الكلينى صاحب كتاب الكافى وهو عند الشيعة كالبخارى عند أهل السنة

وأهم مبادئهم السياسية :

١ — مبدأ العصمة :

فالإمام فى نظرهم كالنبى معصوم من الخطأ وله سلطة التشريع والتنفيذ دون أن يسأل عما يفعل فهو فوق مستوى الحساب والسؤال كما أنه فوق مستوى البشر العاديين : ولهم فى الإمام اعتقادات شتى كقول بعضهم بأن الملائكة تدخل بيوت الأئمة وتأتيهم بالأخبار وقولهم بأن الإمام إذا مات لا يغسله إلا إمام وبأن الأرض كلها للإمام والأئمة أركان الأرض أن تميد بأهلها .

٢ — مبدأ الرجعة :

وهو اعتقادهم برجوع الإمام بعد غيبته أو موته . وقال بها فى العصر الأول عبد الله بن سبأ الذى كان يردد القول برجوع محمد عليه السلام بعد موته وقال بها جابر الجعفى أحد الكذابين وكان يردد القول برجعة على بن أبى طالب . وانتشرت فى العصر الأموى بناء على مبدأ الرجعة فكرة المهدى المنتظر وهى اعتقاد الشيعة فى مجىء إمام منتظر يملأ الأرض عدلا .

٣ — مبدأ التقية :

والتقية تعنى المداراة والكتمان وإظهار غير الحقيقة من أجل حماية النفس والمحافظة على العرض والمال .

وهى عند الشيعة أسلوب عمل سياسى يعنى سرية التنظيم والمداراة والتستر وعدم الخروج على الحاكم إلا والفرصة ممكنة والظروف مواتية . ومبدأ التقية يضع الشيعة الامامية بلغة العصر فى عداد الاحزاب السياسية السرية .

وأهم مبادئهم العقائدية .

١ — مبادىء عامة فى أصول الفقة .

(أ) لا يأخذون بحديث أو رأى إلا إذا كان عن إمام من إئمة الشيعة .

(ب) يرفضون من الاصول والفروع عند السنة ماجاء مخالفاً لتعاليمهم .

(ج) ينكرون الإجماع العام كأصل من أصول الشريعة .

(د) ينكرون القياس كأصل من أصول الشريعة .

٢ — مبادىء خاصة خالفوا فيها أهل السنة :

(أ) يستحلون زواج المتعة إلى الآن وكان الصادق يقول : « وليس منا من لم يستحل متعتنا » .

(ب) يخالفون فى صيغة الاذان فيقولون « حى على خير العمل » بعد حى على الفلاح .

(ج) يخالفون فى كثير من نظام الميراث : فهم ينكرون العول فى الميراث ويقدمون القرابة على العصبية .

وأغرب ماجاءوا به فى الإرث تطويعهم النص والاصل الفقهى لخدمة غرض سياسى كتقديمهم ابن العم الشقيق على العم لأب يهدفون من وراء ذلك تقديم على ابن أبى طالب على العباس عم رسول الله لأب .

وقولهم بأن الانبياء تورث مع اتفاق أهل السنة على حديث المصطفى :

« نحن معاشر الانبياء لانورث ماتركناه صدقة » .

وأهم فرقهم

يقول البعض باختلافهم على أكثر من سبعين فرقة إلا أن أهمها وأعظمها شأناً فرقتان :

١ — الإثنا عشريه :
٢ — الاسماعيلية :

١ — الإثنا عشرية :

أهم فرق الأمامية وسميت الاثنا عشرية لقولهم باثنى عشر إماماً ترتيبهم فى نظرهم على النحو التالى (•) :

١ — الإمام على بن أبي طالب

٢ — الحسن بن على — وقد مات سنة ٥٠ هـ

٣ — الحسين بن على — وقد مات سنة ٦١ هـ

٤ — على زين العابدين — وقد مات سنة ٩٤ هـ

٥ — أبو جعفر محمد الباقر — وقد مات سنة ١١٣ هـ

٦ — أبو عبد الله جعفر الصادق — وقد مات سنة ١٤٨ هـ

٧ — موسى الكاظم بن أبي عبد الله جعفر الصادق وقد مات سنة ١٤٨ هـ

٨ — أبو الحسن على الرضا — وقد مات سنة ٢٠٢ هـ

٩ — أبو جعفر محمد الجواد — وقد مات سنة ٢٢٠ هـ

١٠ — على الهادى — وقد مات سنة ٢٥٤ هـ

١١ — أبو محمد الحسن العسكرى — وقد مات سنة ٢٦٠ هـ

١٢ — محمد المهدى المنتظر — وقد اختفى سنة ٢٦٠ هـ على وجه التقريب .

(•) موسوعة التاريخ الإسلامى للدكتور أحمد شلبى .

ويعتقدون بأنه دخل سردابا في دار أبيه ولم يخرج منه بعد وسوف يعود في في آخر الزمان ليملأ الدنيا عدلا بعد ما تمتلىء ظلماً وجوراً .

وأهم مبادئهم السياسية والعقائدية لاتخرج عن الإطار العام السابق ذكره للامامية بصفة عامة فهم يقدسون الأئمة ويعترفون لهم بالسلطان الكامل في التشريع والتقنين ويعتقدون بأن الإمام معصوم من الخطأ وتجرى على يديه خوارق العادة مما هو معروف بالمعجزة والإمام في نظرهم يحيط علماً بكل شيء والإمام ضروري في نظرهم لبيان الشريعة وكذلك لحفظها وصيانتها من الضياع . وحجتهم في ذلك قول الإمام على بن أبي طالب :

« لايخلو وجه الأرض من قائم لله بحجة إما خفيا مغموراً وإما ظاهراً مستوراً » ، ولا يفرق الوصى عن النبي في نظرهم إلا أمر واحد وهو أن الوصى أى الإمام لايوحى إليه .

وخلاصة قولهم في الأئمة أنهم الأوصياء الذين استودعهم الرسول أسرار الشريعة وأقوالهم شرع مكمل للرسالة ولهم أن يخصصوا النصوص العامة ويقيدوا النصوص المطلقة ولهم مبادئهم العقائدية الخاصة في العبادات والأحوال الشخصية والمواريث والوصايا والأوقاف .

ولهم أتباع الآن في سوريا ولبنان وأكثر أهل العراق وإيران منهم .

وكانت الأسرة الصفوية التى حكمت إيران مابين عامى ٩٠٧ — ١١٤٨ همنهم وكان التشيع على مذهب الاثنى عشرية أيامها ومازال حتى الآن المذهب الرسمى للدولة .

٢ — الاسماعيلية :

يتفقون مع الإثنا عشرية في الأئمة إلى الإمام السادس وهو جعفر الصادق والسابع عندهم ليس ابنه موسى الكاظم كما يرى الاثنا عشريه بل ابنه اسماعيل . وبعد إسماعيل يقولون بالأئمة المكتومين استتروا تقية ودعاتهم ظاهرون بين الناس

يدعون لهم والأئمة المستورون أولهم محمد المكتوم فاسماعيل فمحمد فأحمد فعبدالله فأحمد فحسين وهو أبو عبيد الله المهدى ثم ابنه عبد الله المهدى رأس الدولة الفاطمية الذى بدأ يظهر بعد ما علا شأنه وقوى أمره .

وكان أول ظهور عبيد الله بشمال إفريقيا بسلجلماسه بتونس سنة ٢٩٦ هـ ثم دخل رقادة سنة ٢٩٧ هـ حيث استولى على ملك بنى الأغلب وبويع بيعة عامة بالقيروان . وكان من عقبه بعد ذلك من أنشأ الدوله الفاطمية بمصر .

ونشأ المذهب الاسماعيلى كغيره من مذاهب الشيعة بالعراق ثم انتشر أتباعه بعد اضطهادهم فراراً إلى فارس وخراسان والهند فاختلط المذهب ببعض الأفكار الهنديه والعقائدية الفارسية القديمة .

وأكثر ما تمسك به الاسماعيلية من مبادىء الشيعة مبدأ التقية ومن إلتزامهم بالسرية أنهم كانوا يكتبون الكتب والرسائل ولا يظهرون أسماء أصحابها ورسائل إخوان الصفا الشهيرة غير معلوم أسماء أصحابها الحقيقيين .

وسموا بالباطنية ويرى البعض السبب فى ذلك :

١ — قولهم باستخفاء الأئمة المكتومين حتى ظهرت دولتهم بالمغرب وامتدت إلى مصر .

٢ — قولهم بالظاهر والباطن فى الشريعة وعلم الناس هو الظاهر وعند الإمام علم الباطن .

وأتباع الاسماعيلية متفرقون فى بعض البلاد الإسلامية حتى الآن فى بلاد الشام وفى جنوب إفريقيا ووسطها وبعضهم فى الباكستان وكثير منهم فى الهند .

ثانياً : الطوائف المنحرفة :

١ — السبئية :

السبئية نسبة إلى عبد الله بن سبأ من رؤوس الفتنة وأشد الخارجين على

الخليفة عثمان وولاته . وهو فى الأصل يهودى من يهود الحيرة وابن أمة سوداء وأظهر الإسلام .

وأهم ما يردد السبئية من أفكار شاذة :

١ — يقولون بأن لكل نبى وصياً وأن علياً وصى محمد وخير الأوصياء .

٢ — يقولون برجعة محمد عليه السلام إلى الحياة الدنيا . ويقول ابن سبأ « عجبت لمن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد » .

٣ — يقولون بألوهية على بن أبى طالب :

ولما بلغ ذلك عليا هم بقتل عبد الله بن سبأ ثم عدل واكتفى بنفيه إلى المدائن عملا بمشورة عبدالله بن عباس الذى قال للإمام « إن قتلته اختلف عليك أصحابك وأنت عازم على العودة لقتال أهل الشام » .

٤ — يقولون بصعود على إلى السماء وأن الرعد صوته والبرق تبسمه .

وإذا سمع أحد السبئيين صوت الرعد قال « السلام عليك يا أمير المؤمنين » .

٥ — يؤمن بعضهم بحلول الإله وتجسده فى الإمام على وفى الأئمة من بعده فكان قولهم له « أنت أنت » يعنون بذلك — أنت هو الله لا شبيه لك .

٢ — الغرابية :

وسموا الغرابية لقولهم أن عليا يشبه النبى صلى الله عليه وسلم كما يشبه الغراب الغراب . ولم يؤله الغرابية عليا كما فعل السبئية ولكن ادعوا فضله على رسول الله وزعموا أن الرسالة كانت فى الأصل له وإنما وقع الخطأ من جبريل عليه السلام إذ نزل على محمد بدل على .

٣ — القرامطة :

فرقة من فرق الاسماعيلية المنحرفة بدأت نشاطها فى مدينة واسط بين الكوفة والبصرة حيث السكان خليط من العرب والنبط والسودان ومن أول دعاتهم حمدان القرمطى الذى أنشأ مركزا جديدا للدعوة الإسماعيلية قرب الكوفة أطلق عليه اسم « دار الهجرة » وكان حمدان يجمع الضرائب من أتباعه ويوزعها على الفقراء فاعتبرهم البعض من أول الجمعيات الاشتراكية . وكان من قادتهم أبو سعيد الجنابى الذى أنشأ فرعاً للفرقة فى الأحساء من بلاد البحرين حيث انتشر نشاط الدعوة وراح يهدد أمن الخلافة العباسية فى عهد الخليفة المعتضد .

وفى عهد قائدهم أبو طاهر سليمان هاجموا مكة أكثر من مرة وسلبوا الكعبة وقتلوا الآلاف من الحجاج حتى من تعلق منهم بأستار الكعبة وكان أبو طاهر يصيح فى أتباعه « اجهزوا على الكفار عبدة الأحجار » وهدموا زمزم وسرقوا الحجر الأسود الذى ظل فى الإحساء مهجورا حتى سنة ٣٣٩ هـ حيث ردوه بأمر من المنصور الفاطمى . وتوفى أبو طاهر سنة ٣٣٢ هـ حيث كفت الحركة بوفاته عن غزواتها وتطلعاتها المخربة وبخاصة وأن الدولة العباسية كانت فى ذلك الوقت قد وقعت تحت نفوذ بنى بويه الشيعيين .

٤ — الدرزية :

الدرزية نسبة إلى محمد بن إسماعيل الدرزى المعروف بنوشتكين والدرزية بالفارسية تعنى الخياط وهو فارسى الأصل وكان من دعاة الباطنية ووفد إلى مصر وخدم الخليفة الحاكم الذى قربه إليه . وهو أول من قال بتقديس الحاكم وبأن الله تجسد فى صورته بل قام ومعه خمسمائة من اتباعه بالحج إلى قصر الحاكم فقاتلهم أهل السنة من شعب مصر واضطروه إلى الهرب إلى جبال لبنان ويقال أن الحاكم هو الذى نصحه بذلك .

وبعد رحيله تزعم الدعوة الدرزية حمزة بن على بن أحمد الذى لقب نفسه بهادى المستجيبين وقائم الزمان وإمام الزمان وفى سنة ٤٠٨ هـ لقبه الحاكم بالإمام وصرح له بأن يجهر بمذهبه فجعلت سنة ٤٠٨ مبدأ تقويم الدروز ولما مات الخليفة الحاكم

أنكر حمزة الوفاة وقال بغيبته غيبة مؤقتة يعقبها رجعة وأحل أتباعه من فرائض الإسلام الكبرى كالصوم والحج واستبدلها بالصدق والتعاون وبالتسليم المطلق للإرادة الإلهية أصل اهتمام التعاليم الدرزية بالقضاء والقدر .

٥ — النصيرية أو الحشاشين :

النصيرية نسبة إلى جبل النصيرية حيث اتخذوه مقرا لهم وكان يعرف قديما بجبل السماق وسموا الحشاشين لأن دعاتهم كانوا يستهوون المريدين عن طريق التخدير بالحشيش . وقد ظهر زعيمهم الحسن بن الصباح فى فارس فى عهد الحاكم بأمر الله وامتد نشاطهم فى عهد الدولة الفاطمية إلى مصر والشام . ويدعون الانتساب إلى « الاثنا عشرية » وحقيقة دعوتهم خليط شاذ من كل ما هو موجود لدى طوائف الشيعة جميعها فقد أخذوا عن الإسماعيلية أسلوب العمل السرى والمعقد وعن السبئية القول بالوهية على ورجعته وعن الشيعة عموما القول بالعلم الظاهر والباطن » .

أهم الدول التى قامت على مذهب الشيعة :

(١) — دولة الأدارسة ١٧٢ — ٣٧٥ هـ = ٧٨٨ — ٩٨٥ م وبدأت بثورة للعلويين فى المدينة ضد العباسيين يقودها الحسين بن على ابن الحسن بن الحسن فى عهد الخليفة العباسى الهادى (١٦٩ — ١٧٠) هـ وبعد هزيمة العلويين أمام جيش الخليفة العباسى فر بعض زعمائهم ومنهم إدريس بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن ويعرف بإدريس الأول والذى مر بمصر إلى المغرب الأقصى وأقام دولة الأدارسة وكانت عاصمتها « وليلى » ثم أصبحت العاصمة « فاس » من سنة ١٩٢ هـ

وقائمة ملوكها (*) :

أدرس الأول بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ١٧٢ هـ .

أديس الثانى بن أدريس الأول .

محمد بن إدريس الثانى

(*) موسوعة التاريخ الإسلامى للدكتور أحمد شلبى .

علی الأول بن محمد
يحيى الأول بن محمد
يحيى الثانى بن يحيى الأول
على الثانى بن عمر بن أدريس الثانى
يحيى الثالث بن قاسم بن أدريس الثانى
يحيى الرابع بن أدريس بن عمر
الحسن بن قاسم

ودولة الادارسة أول دولة للشيعة فى التاريخ استمرت تحكم على مدى قرنين من الزمان (من ١٧٢ هـ — ٣٧٥ هـ) المنطقة المقابلة لمراكش الحالية والجزء الغربى من الجزائر وبفضل هذه الدولة انتقلت الحضارة الإسلامية إلى المغرب وانتهى أمرها بسبب الخلافات والضغائن بين أبناء السلاطين وبسبب مركزها الجغرافى بين الأمويين بالأندلس والعباسيين ثم الفاطميين فى تونس .

(٢) دولة الفاطميين :

بدأت دولة الفاطميين فى شمال أفريقيا على أنقاض دول ثلاث. دولة الاغالبة فى تونس ودولة آل رستم فى الجزائر ودولة الأدارسة فى مراكش . وبنى عبيد الله المهدى مدينة المهدية سنة ٣٠٣ هـ واتخذها عاصمة الملك الممتد فى الشمال الأفريقى فشمل الدول الثلاث . والفاطميون يعرفون بالعبيديين نسبة إلى جدهم عبيد الله ولكنهم يفضلون أن ينسبوا إلى فاطمة فيقال : فاطميون . وخلفاء الفاطميين فى الشمال الأفريقى فى العهد الأول لدولتهم (*)

عبيد الله المهدى ٢٩٧ هـ = ٩٠٩ م .
أبو القاسم القائم بن المهدى ٣٢٢ هـ = ٩٣٤ م .
المنصور بن القائم ٣٣٤ هـ ٩٤٥ م وقد انشأ المنصورية واتخذها عاصمة .
المعز لدين الله ٣٤١ هـ ٩٥٢ م وانتقل إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ أى ٩٧٢ م .
وقبل انتقال المعز لدين الله إلى مصر حكم جوهر الصقلى مصر باسم الخلافة

(*) موسوعة التاريخ الإسلامى للدكتور أحمد شلبى

الفاطمية لمدة أربع سنوات من ٣٥٨ هـ - ٣٦٢ هـ أى منذ فتحها وإلى مقدم المعز لها عمل جوهر على الدعوة للتشيع بالتدرج فنشر فى بادىء الأمر وثيقة يشترط على نفسه فيها العدل بين الناس وإسقاط الرسوم الجائرة وتركهم على مذهبهم فلما استقر له الأمر منع لبس السواد شعار العباسيين وعمل على نشر اللبس الأخضر شعار الفاطميين وآل البيت وأمر أن يزاد فى الآذان عبارة الشيعة « حى على خير العمل » وأن يزاد فى خطبة الجمعة الصلوات والتسليم على الإمام على وفاطمة البتول والحسن والحسين وجعل المناصب العامة حكرا على الشيعة من مصريين أو مغاربة .

وجاء المعز لدين الله فبذل نشاطا مضاعفا لخدمة المذهب الشيعى وجند لذلك العلماء والشعراء وكثرت احتفالات الشيعه فكانوا يحتفلون بستة موالد : مولد النبى ومولد على ومولد فاطمة ومولد الحسن ومولد الحسين ومولد الخليفة القائم . كما كانوا يحتفلون بعاشوراء وبعيد الغدير وبعد المعز حكم العزيز فتشدد أكثر فى فرض المذهب الشيعى إلى حد إلزام المصريين باعتناقه وأصدر أوامره إلى القضاة بالحكم وفق قوانين مذهب الشيعة .

وبعد العزيز كان الحاكم بأمر الله وما هو معروف عن عهده وانحراف الشيعة وظهور الحاكمية والدرزية .

واستمر المذهب الشيعى ظاهرا فى مصر حتى قطع صلاح الدين الأيوبى الخطبة للفاطميين بعد وفاة العاضد الفاطمى وخطب باسم الخليفة العباسى المستضىء بالله وعادت مصر إلى أحضان المذهب السنى وأحرقت الكتب التى تدعو للتشيع وعزل صلاح الدين قضاة الشيعة وأقام قاضيا شافعيا فى القاهرة كما أمر بإنشاء مدارس الشافعية .

(٢) دولة بنى بويه أو البويهيين :

دولة البويهيين نسبة إلى رجل فقير اسمه بويه كان يعمل صياد سمك ومن بلاد الديلم أو بلاد جيلان فى الجنوب الغربى لبحر قزوين (بحر الخزر) وهى بلاد خضعت للمسلمين فى عهد عمر بن الخطاب ثم انتشر الإسلام بين أبنائها بفضل داعية مسلم اسمه الحسن بن على ولقبه الأطروش .

وكان لبويه أبناء ثلاثة هم علي والحسن وأحمد اتخذوا الجندية مرتزقا لهم وعلا شأنهم حتى ملكوا العراقين والأهواز وفارس وفى سنة ٣٣٤ هـ بعد ما ساءت الأحوال وتدهورت فى بغداد كتب قادتها إلى أحمد بن بويه ليدخل بغداد فقدم إليها ورحب به الخليفة العباسي وعينه « أمير الأمراء » ولقبه « معز الدولة » ولقب أخاه عليا « عماد الدولة » والحسن « ركن الدولة » وذهبت هيبة الخلافة ولم يعد للخلفاء العباسيين نفوذ فى ظل السلاطين الجدد من بنى بويه .

وخلفاء العباسيين فى ذلك العهد (*)

المستكفى ٣٣٣ — ٣٣٤ وقد عاصر آخر عهود الأتراك ومطلع عهد بنى بويه .

المطيع ٣٣٤ — ٣٦٣ هـ

الطائع ٣٦٣ — ٣٨١ هـ

القادر ٣٨١ — ٤٢٢ هـ

القائم ٤٢٢ — ٤٦٧ هـ وقد عاصر آخر عهد البويهيين ومطلع عهد السلاجقة .

● وأمر معز الدولة أن يحتفل الناس فى بغداد بأعياد الشيعة وبخاصة عاشوراء فى العاشر من محرم وعيد الغدير فى الثامن عشر من ذى الحجة . فيلبس الناس السواد فى الأول وأحسن ما عندهم فى الثانى وعيد الغدير نسبة إلى خطبة رسول الله فى غدير التى قال فيها عليه السلام : « ومن كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار . ألا هل بلغت » .

● وفى ظهور سلطان دولى للشيعة فى المشرق والمغرب ثم انحساره :

يقول الدكتور أحمد شلبى :

« فى آخر القرن الثالث الهجرى بدأ الفاطميون يكونون دولة فى الشمال الأفريقى

(*) موسوعة التاريخ الإسلامى للدكتور أحمد شلبى .

ثم زحفوا إلى مصر سنة ٣٥٩ هـ وهنا وهناك بدءوا ينشرون مذهب الشيعة ويقاومون مذهب أهل السنة — وفى نفس الفترة كان البويهيون قد حققوا انتصاراً على بقايا الأتراك المماليك وبدءوا سلطانهم على الخلافة العباسية سنة ٣٣٤هـ وبالتالى عملوا على نشر التشيع ومقاومة المذهب السنى وهكذا حقق الشيعة نجاحاً فى الشرق والغرب وتقهقر أمام سلطانهم النفوذ السنى وجاء السلاجقة للحكم سنة ٤٤٧ هـ فبدءوا يعيدون الأمور إلى نصابها . وقام الوزير السلجوقى الشهير نظام الملك بدور كبير فى إحياء الدراسات السنية والقضاء على بقايا التشيع وتنسب إلى هذا الوزير « المدارس النظامية » التى جلس الغزالى يعلم فى إحداها والتى كان لها نصيب كبير فى تنشيط المذهب السنى ومقاومته التشيع واقتبس نور الدين زنكى هذا الاتجاه من نظام الملك فنشر فى مملكته بحلب ودمشق مدارس كتلك التى أنشأها نظام الملك فكان بذلك إمتداداً له كما كان إمتداداً لأبيه عماد الدين فى الانتصارات العسكرية وجاء صلاح الدين الأيوبى فورث مملكة نور الدين فى الأمرين جميعاً » .

(ب) الخوارج

الخوارج هم الذين حملوا عليّ بن أبي طالب على التحكيم وفرضوا عليه محكماً بالذات هو أبو موسى الأشعرى . ثم اعتبروا التحكيم ذنباً كفر على بارتكابه وطالبوه بالتوبة كما كفروا هم وتابوا . وكان شعارهم : « لا حكم إلا لله » . ومن أسمائهم :

١ — الخوارج أو الخارجة : اشتق من الفعل خرج لأنهم خرجوا على الامام على وكانوا فى الأصل أتباعه .

٣ — الشراه : بمعنى شروا آخرتهم بدنياهم .

٣ — الحرورية : نسبة إلى حروراء موضع على الفرات بجوار الرقة أقاموا به بعد عودة الإمام من موقعة صفين وهى قرية من قرى الكوفة .

٤ — المحكمة : نسبة إلى شعارهم « لا حكم إلا لله » .

وأهم صفاتهم .

١ — التهور وشدة التناقض فى التصرف : ومن ذلك أنهم قتلوا عبد الله بن خباب لأنه لم يقل لهم : « على مشرك » ورفضوا أخذ التمر من النصرانى بغير ثمن وجاء فى الكامل للمبرد : قال لهم النصرانى : « ما أعجب هذا أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلوا منا نخلة ؟ » وجاء فى الإمامة والسياسة لابن قتيبة فى شأن ابن ملجم : « وأخذوا ابن ملجم فقطعت يداه ورجلاه وأذناه وأنفه وأتوا يقطعون لسانه فصرخ فقيل له : قد قطعت منك أعضاء ولم تنطق فلما أتوا يقطعون لسانك صرخت ؟ قال . إنى أذكر الله به ، فلم يسهل على قطعه » .

ويروى أن عبد الله بن عباس لما وصل إليهم من قبل على لمجادلتهم وجد منهم جباها قرحة لطول السجود .

٢ — السذاجة وعدم التعمق فى التفكير : ومن ذلك أنهم ظلوا يحاربون فى صفوف عبد الله بن الزبير ويؤيدونه حتى انجلت جيوش الأمويين عن مكة

وبعد ذلك راحوا يجادلونه ليعرفوا حقيقة فكره وهل يقر بكفر عثمان وعلى وخالته عائشة وأبيه الزبير فرفض منهم هذا الحق وهذه السطحية فى التفكير فأنفضوا من حوله وأشعلوها حرباً عليه .

٣ — تغلب عليهم طباع عرب البادية : وهذا ما يفسر الصفتين السابقتين من سذاجة التفكير وتناقض التصرفات وأكثرهم كان من عرب البادية فعلا وقليل منهم كان من عرب القرى إذ كانت غالبيتهم من القبائل الربيعية . هذا بالإضافة إلى أن الخلفاء كانوا من مضر وبين الربيعيين ومضر عداء قديم فكان الخوارج يحسدون قريشا لاستئثارها بالخلافة ويثورون لأتفه الأسباب مع كثرة العبادة مما يدل على أن الاسلام أصاب شغاف قلوبهم مع ضيق الأفق وسذاجة التفكير والتصور . وفيهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« تحقر صلاة أحدكم فى جنب صلاتهم وصوم أحدكم فى جنب صيامهم ولكن لايجاوز إيمانهم تراقيهم » .

ومن أهم مايذكر فى الفرق بينهم وبين الشيعة :

١ — يقدس الشيعة عليا ويكفره الخوارج .

٢ — أفكار الشيعة تسبق أعمالهم والعكس عند الخوارج فقد ثاروا ثم حاولوا أن يجدوا مبرراً لثورتهم .

٣ — الشيعة يأخذون بمبدأ التقية أى السرية كأسلوب عمل سياسى بينما الخوارج يؤمنون بالخروج على السلطان الجائر فى كل الظروف دون النظر إلى قوة كل من الطرفين .

٤ — طابع الشيعة العام غير عربى لما خالطهم من عنصر غريب فارسى وهندى ويهودى أما الخوارج فيغلب عليهم الطابع العربى .

أهم مبادئهم السياسية :

١ أن يكون اختيار الخليفه بانتخاب حر يقوم به عامة المسلمين .

٢ — لا يشترط انتماء الخليفة لبيت محدد من بيوت العرب بل يفضل بعضهم أن يكون غير قرشي فيسهل عزله إن جار أو ظلم .

٣ — عدم تحديد مدة الخلافة . فالخليفة فى نظرهم باق أى عدد من السنين ما دام عادلا ويجب عزله بمجرد وقوع الظلم منه .

٤ — منهم فرقة النجدات ترى الإمامة جائزة وليست واجبة إلا إذا قضت المصلحة والحاجة .

ومن مبادئهم العقائدية :

١ — أخذهم بظاهر النص كقولهم بعدم قذف المحصنين من الرجال .

٢ — يقولون بكفر أهل الذنوب ولم يفرقوا فى ذلك بين ذنب وذنب حتى إن مجرد الخطأ فى الرأى فى نظرهم ذنب يكفر مرتكبه وذلك ما حكموا به على الإمام على بعد التحكيم .

٣ — يجوز للأنبياء فى رأيهم أن يرتكبوا الصغائر والكبائر .

٤ — إبراز دور العمل كجزء من الإيمان فلا يتم الإيمان فى نظرهم بمجرد الاعتقاد والنطق بالشهادتين وإنما يلزم العمل كأداء الصلاة والصوم والحج ليتم الإيمان .

وأهم فرقهم :

أولا : الفرق المعتدلة :

(١) الأزارقة :

الأزارقة نسبة إلى زعيمهم أبى راشد نافع بن الأزرق من بنى حنيفة . وتولى قيادتهم بعد مقتل بن الأزرق نافع بن عبيد الله ثم قطرى بن الفجاءة ومن رجالهم عطية بن الأسود وعبيد بن هلال اليشكرى وصخر بن حبيب وصالح بن مخراق وقاتلوا الزبيريين والأمويين لمدة تسعة عشر سنة . وتصدى لقتالهم المهلب.

ابن أبي صفرة باختيار أهل البصرة له ثم أقره ابن الزبير فعبد الملك بن مروان فالحجاج وتوالت هزائم الازارقة على يد المهلب ومن خلفه من قواد الامويين حتى انتهى أمرهم . وفى بدء خروجهم مع نافع بن الأزرق وقتالهم معه كانت لهم الغلبة على الأهواز وفارس وكرمان .

ومن مبادئهم السياسية :

١ — دار المخالفين لهم دار حرب يستباح فيها ما يستباح فى دار الحرب من قتل الأطفال والنساء وسبى الذرية والمخالفون لهم مشركون مخلدون فى النار يحل تتالهم وقتلهم .

٢ — يحل فى رأيهم قتل من قعدوا عن القتال .

٣ — لا تباح فى رأيهم دماء أهل الذمة الذين مع مخالفيهم .

٤ — التقية لديهم غير جائزة قولا أو عملا .

ومن مبادئهم العقائدية :

١ — أطفال مخالفيهم مخلدون فى النار وأطفال المشركين فى النار مع آبائهم .

٢ — حد القذف لا يثبت على من يقذف المحصنين من الرجال لأخذهم بظاهر النص : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون » . (سورة النور آية ٤)

٣ — يجوز للأنبياء ارتكاب الصغائر والكبائر لأخذهم بظاهر النص : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .
(سورة الفتح آية ١ ، ٢)

(٢) النجدات :

النجدات نسبة إلى زعيمهم نجدة بن عامر وكانوا فى الأصل باليمامة مع أبي طالوت الخارجى ثم انفضوا عنه وبايعوا نجدة سنة ٦٦ هـ واستولى نجدة على البحرين وحضر موت واليمن والطائف وشرع فى التوجه إلى البصرة لمقابلة نافع بن الأزرق فى محاولة لتقريب وجهات النظر بينهما إلا أنه قابل فى الطريق عطية

ابن الأسود وأبا فديك وبعض أتباع نافع حيث ذكروا له البدع التي يقول بها ابن الأزرق وبايعوا نجدة رئيسا لهم فرجع بهم وعدل عن السير إلى البصرة .

ومن مبادئهم السياسية :

١ — الإمامة جائزة وليست واجبة وجوبا شرعيا وانما وجوبها وجوب مصلحة وحاجة .

٢ — يقولون بالتقية وللخارجي فى رأيهم أن يخفى عقيدته حتى تسنح الفرصة المناسبة لاظهارها .

٣ — تباح عندهم دماء أهل الذمة الذين مع مخالفيهم كما أبيحت دماء المخالفين من المسلمين والذين يعيش أهل الذمة فى كنفهم .

٤ — لايحلون قتل الأطفال .

ومن مبادئهم العقائدية :

١ — لايقولون بتكفير القاعدين عن القتال من الخوارج .

٢ — عذروا بالجهل فى أحكام الفروع وسموا لذلك بالعاذرية .

٣ — ومن شدة تناقضهم قول نجدة بأن من نظر نظرة أو كذب كذبة ولو صغيرة مشرك ومن زنى أو شرب أو سرق غير مصر فهو غير مشرك . وفى نهايتهم يقال اختلفوا كعادتهم إلى ثلاث فرق :

١ — فرقة مع عطية بن الأسود وهو من بنى حنيفة وقد ذهبوا معه إلى سجستان .

٢ — فرقة بقيت مع نجدة وعذرته فيما نسب إليه .

٣ — فرقة ثارت على نجدة وقتلته وبايعت أبا فديك ليحل محله وهى أقوى الفرق الثلاثة .

ومما يدعو للسخرية ويعبر تعبيرا صادقا عن الطابع العام والمميز للخوارج من حيث ضيق الأفق وسذاجة التفكير والفوضى ذلك الذى ذكره الشهرستانى فى أمر

نهاية نجدة إذ يقال بأن أصحابه نقموا عليه بعض تصرفاته فاستتابوه فتاب ثم ندموا على استتابته وقالوا :

« أخطأنا وما كان لنا أن نستتيب الإمام وما كان له أن يتوب باستتابتنا إياه . ثم تابوا من ذلك وطلبوا منه أن يتوب من توبته وإلا نابذوه فتاب من توبته . ولكن ذلك لم يكفهم أيضاً فقال بعضهم » :

« إن هذا اقرار منه بصحة أحد الذنبين = صحة ذنب تاب منه أولا أو صحة توبة من غير ذنب . فكفروه ووثبوا عليه وقتلوه »

(٣) الصفرية :

واختلف الرواة فى أصلهم :

١ — ينسبهم البعض إلى زياد بن الأصفر .

٢ — والبعض ينسبهم إلى عبد الله بن الصفا .

٣ — والبعض يقول الصفرية نسبة إلى الصفرة فأصحابها اصفرت وجوههم من كثرة العباده .

وعلى القول الثالث تبدأ الصفرية بصالح بن مسرح الذى كان كما يقول الطبرى: ناسكا مخبتا مصفر الوجه صاحب عبادة خرج يقود فريقا من الخوارج ومن أهم رجاله شبيب بن يزيد الشيبانى الذى تنسب إليه طائفة الشبيبية . وتولى شبيب قيادة الفرقة بعد وفاة صالح واستطاع أن يدخل الكوفة مرتين على عهد الحجاج حتى حاصره سفيان بن أبرد الكلبى وهو يعبر نهر دجيل وغرق شبيب فى عام ٧٧ ﻫ .

والصفرية بوجه عام أقل تطرفا من الأزارقة واشد من غيرهم ومنهم أبو بلال مرداس وعمران بن حطان الشاعر .

وأهم مبادئهم السياسية :

١ — دار المخالفين ليست دار حرب ولا يباح فى نظرهم دم المسلمين .

٢ — لا يجوز سبي النساء والذرية .

٣ — التقية جائزة فى القول لا العمل .

٤ — القتال غير جائز فى دار الإسلام لغير معسكر السلطان.

وأهم مبادئهم العقائديه :

١ — لم يكفروا القعدة عن القتال إذا كانوا منهم .

٢ — لم يسقطوا الرجم .

٣ — اختلفوا فى مرتكب الكبيرة : فقال بعضهم بكفر من ارتكب من الكبائر ماليس فيه حد كترك الصلاة والفرار يوم الزحف وما فيه حد كالزنا والسرقه والقذف لزم مرتكبه الحد وسمى حسب الذنب زانياً أو سارقاً أوقاذفاً ولايعد كافراً أو مشركا .

وقال بعضهم بأن مرتكب الذنب لا يعد كافراً حتى يقيم عليه الوالى الحد .

٤ — يجوز عندهم تزويج المسلمات من كفار قومهم فى دار التقية وليس فى دار العلانية .

٤ — العجارده :

العجاردة نسبة إلى زعيمهم عبدالكريم بن عجرد أحد اتباع عطية بن الأسود الذى خرج على نجدة وذهب بفرقته إلى سجستان . ويقال أن ابن عجرد من تلاميذ ابن بيهس .

وأهم مبادئهم السياسية :

١ — الهجرة من دار المخالفين فضيلة لافريضة .

٢ — لاعذر للقاعد عن القتال إذا كان قادراً

٣ — لايباح مال مخالف إلا إذا قتل ولايقتل من لايقاتل .

٤ — الجهاد ليس واجباً باستمرار .

وأهم مبادئهم العقائدية :

١ — يتوقفون فى أمر الأطفال حتى البلوغ فيدعون للإسلام .

٢ — أطفال المشركين فى النار مع آبائهم .

٣ — يكفرون بالكبائر .

ويذكر الشهرستانى من فرقهم :

الصلتية والميمونية والحزبة والخلفية والأطرافية والشعيبية والحازمية .

٥ — الإباضية :

الأباضية نسبة إلى زعيمهم وهم أقرب فرق الخوارج إلى الجماعة الإسلامية وأكثرهم اعتدالا .

وأهم مبادئهم السياسية :

١ — لاتحل دماء مخالفيهم ودارهم دار توحيد وإسلام إلا معسكر السلطان ولايحل من غنائم المسلمين المحاربين إلا الخيل والسلاح ويردون لهم الذهب والفضة .

٢ — لايجيزون قتال مخالفيهم إلا بعد دعوتهم .

٣ — لايسمون إمامهم أمير المؤمنين ولايسمون أنفسهم مهاجرين .

وأهم مبادئهم العقائدية :

١ — أن مخالفيهم من أهل القبلة غير مشركين وغير مؤمنين وإنما كفار وهم فى نظرهم كفار نعمة لا كفار عقيدة لأنهم قصروا فى حق الله ولم يكفروا به وكذلك من ارتكب كبيرة فى نظرهم كافر نعمة لا كافر ملة .

٢ — توقفوا فى أطفال المشركين وجوزوا تعذيبهم انتقاماً كما جوزوا دخولهم الجنة تفضلا .

٣ — أجازوا شهادة المخالفين لهم من أهل القبلة كما أجازوا مناكحتهم وكذلك التوارث بينهم وبين الخوارج .

٤ — أفعال العباد فى عقيدتهم مخلوقة لله إحداثاً وابداعاً ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً .

وذكر الشهرستانى من فرقهم : الحفصية والحارثيه واليزيديه .

ولم يبق من الخوارج إلى الآن غير طائفة من الاباضية تقيم فى عمان وفى بعض واحات الصحراء الغربية المصرية والبعض الآخر فى بلاد الزنجبار وشمال إفريقية.

ولهم فقه جيد وعلماء مجتهدون واقتبست القوانين المصرية بعض آرائهم فى المواريث .

ثانياً : الفرق المنحرفة :

١ — اليزيدية :

اليزيدية نسبة إلى يزيد بن أنيسة وكان أباضياً ثم زعم أن الله سوف يبعث رسولا من العجم وينزل عليه كتاباً كتب فى السماء ينزله الله عليه جملة واحدة ويترك شريعة المصطفى وينسخها ويكون على ملة الصابئه المذكورة فى القرآن وليست الصابئه التى وجدت بحران وواسط ويقول بشرك صاحب الذنب الصغير أو الكبير .

٢ — الميمونيه :

الميمونية نسبة إلى ميمون بن خالد وكان من العجاردة وتركهم وقال بإثبات العقل للعبد خلقاً وابداعاً وإثبات القدر من العبد خيره وشره وليس لله مشيئه فى معاصى العباد .

وأجاز الميمونية نكاح بنات البنات وبنات أولاد الأخوة والاخوات أخذاً بظاهر النص فى أمر المحرمات وينكرون سورة يوسف لأنها فى زعمهم قصة غرام وأطفال المشركين عندهم فى الجنة وقالوا بوجوب قتال السلطان وحده ومن رضى بحكمه .

أهم الدول التى قامت على مذهب الخوارج :

الدولة الرستميه : (١٦٠ — ٢٩٦ ﻫ) (٧٧٦ — ٩٠٨ م)

الدولة الرستمية نسبة إلى مؤسسها القاضى عبد الرحمن بن رستم وشملت المنطقة المقابلة للجزائر الحالية بإستثناء جهات قليلة بالجنوب والشرق . وبنى القاضى عبد الرحمن مدينة تيهرت — وتسمى الآن تيارت — وجعلها عاصمة الدولة الرستميه وآل رستم من فرقة الاباضية إحدى فرق الخوارج المشهورة والمعتدلة والباقية حتى الآن . وكان الحكم عند آل رستم طبقاً لمبادىء الخوارج يقوم على الشورى وانتخاب الإمام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعدل بين الرعية.

وأئمة آل رستم : (*)

عبد الرحمن بن رستم ١٦٠ ﻫ = ٧٧٦ م
عبد الوهاب بن عبد الرحمن
الافلح بن عبد الوهاب
أبو بكر بن الأفلح
محمد بن الافلح
يوسف بن محمد
يعقوب بن الأفلح (٢٩٤ — ٢٩٦ ﻫ) = (٩٠٦ — ٩٠٨ م)

(*) موسوعة التاريخ الإسلامى للدكتور أحمد شلبى .

(ج) أهل السنة

وأهل السنة هم جمهور المسلمين وهم الأغلبية وقد توسط الجمهور بين الشيعة والخوارج فكانوا الفرقة المعتدلة والباقية بينما انقرض الآخرون أو أوشكوا على الإنقراض .

وأهم الفروق السياسية بينهم وبين الشيعة والخوارج :

١ — في شروط الخلافة :

اشترط الجمهور القرشية ، بينما اعتبرها الشيعة وراثة نبوية بوصية من النبي لمن بعده من العلويين وأطلقها الخوارج محررة من كل قيد قبلي أو عائلي وجعلوها حقاً لكل مسلم استوفى بقية الشروط .

٢ — في الخروج على الحاكم الظالم :

قال الشيعة بالتقية وقال الخوارج بالخروج عليه ولو كان أقوى منهم ومهما كانت النتيجة وتوسط الجمهور فقالوا : لا يطاع في معصية وكلمة الحق عنده واجبة لا يشترط الخروج عليه إذ قد يؤدى الخروج إلى فتنة . والفتنة فيها الفوضى وساعة من الفوضى يقع فيها من الظلم ما لا يقع في استبداد سنين .

وأهم أفكارهم السياسية :

١ — أجمع جمهور العلماء على وجوب إمام لتوحيد الكلمة وإقامة الحدود وحماية الثغور وجمع الزكاة والفصل في الخصومات بالقضاة .

٢ — واشترطوا في الإمام :

أولا : القرشية :

وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم :

« لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان » .

وروى في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم » .

وروى البخارى عن معاوية أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إن هذا الأمر فى قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدنيا » .

ثانياً : البيعـــة :

أى المبايعة من أولى الحـل والعقد والجنود وجماهير المسلمين ، وعلى هذا كان نهج الصحابة وجمهور المسلمين مع الخلفاء الراشدين .

وقد قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما » .

(سورة الفتح آية ١٠)

وقال تعالى : « يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم » .

(سورة الممتحنة آية ١٢)

ثالثاً : الشـــورى :

وهو أن يكون الإختيار بمشاورة جماهير المسلمين لقوله تعالى :

« وأمرهم شورى بينهم » .

(سورة الشورى آية ٣٨)

وقوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » .

(سورة آل عمران آية ١٥٩)

وأعظم أمور المسلمين وأخطرها شأناً أمر اختيار الحاكم الذى تسند إليه تقاليد أمورهم كلها .

رابعاً : العـــدالة :

لقوله تعـالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » .

(سورة النساء آية ١٣٥)

وقوله صلى الله عليه وسـلم : « من ولى أمر أمتى شيئاً فأمر أحداً محاباة فعليه لعنة الله والملائـكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا » .

وقال صلى الله عليه وسـلم : « من استعمل رجلا على عصابة وفيهم من هو أرضى لله فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

٣ — وفى أمر الحاكم الظالم سواء أكان اختياره صحيحاً أم كان غير مستوف للشروط التى فرضوها . اتفق جمهور أهل السنة على عدم الخروج عليه .

وقد جاء فى الموطأ عند شرح بيعة النبى صلى الله عليه وسـلم التى جاء فيها : « وألا تنازع الأمر أهله » ما نصه :

قال ابن عبد البر :

« وإلى منازعة الظالم الجائر ذهبت طوائف من المعتزلة وعامة الخوارج . أما أهل السنة فقالوا : الإختيار أن يكون الإمام فاضلا عادلا محسناً ، فإن لم يكن فالصبر على طاعة الجائر أولى من الخروج عليه لما فيه من استبدال الخوف بالأمن وإهراق الدماء وشن الغارات والفساد وذلك أعظم من الصبر على جوره وفسقه والأصول تشهد والعقل والدين أن أقوى المكروهين أولى بالترك » .

وروى عن الإمام أحمد أنه قال : « الصبر تحت لواء السلطان على ما كان منه من عدل أو جور ولا يخرج على الأمراء بالسيف وإن جاروا » .

وقال الحسن البصرى فى وجوب طاعة ملوك بنى أمية ما نصه :

« هم يلون من أمورنا خمسة : الجمعة والجماعة والفيء والثغور والحدود لا يستقيم الدين إلا بهم وإن جاروا وإن ظلموا والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون » .

هذا وقد روى عن « أم سلمة » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« سيكون أمراء فتعرفون وتنكرون فمن عرف برىء ومن أنكر سلم ولكن من رضى وتابع . . قالوا : أفلا نقاتلهم يا رسول الله ؟ قال لا . . » .

وروى فى الصحيحين « البخارى » و « مسلم » عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إنكم ستروون بعدى إثرة وأموراً تنكرونها ، قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟

قال : « تؤدون الحق الذى عليكم وتسألون الله الذى لكم » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم : « من وَلِى عليه وال فرآه يأتى شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتى من معصية ولا ينزعن يداً عن طاعة » .

هذا اتفاقهم فى عدم الخروج إلا أنهم اتفقوا فى عدم الطاعة فى معصية لقوله صلى الله عليه وسلم :

« على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

كما اتفقوا على أن قول كلمة الحق عند سلطان جائر أمر واجب لقوله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « الدين النصيحة » قيل لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين » .

هذا واتفاق الجمهور على عدم الخروج إذا جار الحاكم يعبر عن إعتدال نظرتهم وتوسط رأيهم وحرصهم على المصلحة العامة وخوفهم من وقوع الفتنة ، والنصوص الشرعية بين أيديهم تقول : بأن الضرورات تبيح المحظورات و « لا ضرر ولا ضرار » وأن اختيار أخف الضررين مصلحة ورأوا من معاوية فرضها ملكا عضوضاً بالسيف ومن أبى جعفر المنصور ضربه الإمام مالك فى فتوى سياسية . وكان الحجاج السفاح الذى قتل الآلاف بغير حساب يحمل الناس على أن يقولوا فى بيعتهم : « عبيدى أحرار ونسائى طوالق إن خرجت عن طاعة الخليفة » .

فى مثل هذا الجو الجائر وخشية من وقوع فتنة لا تبقى ولا تذر يكون أنوى المكروهين أولى بالترك ، كما يرى جمهور علماء أهل السنة وتكون الحكمة فيما رأوا . ومن هذا النوع من الإجتهاد فى اختيار أخف الضررين قولهم بالرضا اللاحق .

والرضا اللاحق هو الرضا بحاكم لم يستوف شروط الخلافة إذا لم يكن هناك حاكم عادل غيره استوفى الشروط والتف حوله جميع الناس وقد أجاز ذلك الأئمة الثلاثة : مالك والشافعى وأحمد وقرروا فى أمر خلافته أن ولايته لا تعتبر خلافة نبوية ولكنها تعتبر ملكا دنيوياً ، وهكذا قالوا فى ولاية يزيد بن معاوية : « ولاية ملك لا ولاية خلافة » .

ولا شك أن مشكلة الخروج على السلطان الجائر وهى بلغة العصر مشكلة انتقال السلطة جار الحاكم أو مات ما زالت وسوف تظل من أعقد مشاكل علم السياسة قديماً وحديثاً وستبقى مطروحة للبحث على الدوام .

ويقول الشيخ محمد الخضر حسين :

« أما البغاة والعاصون (من أولى الأمر) فقد أمر الإسلام بكفاحهم وسل السيوف فى وجوههم ما استطعنا لذلك سبيلا وأذن لنا بأن نجنح لسلمهم حينما نخشى فتنة أشد من محاربتهم عملا بقاعدة : « ارتكاب أخف الضررين » .

● هذه صورة مبسطة لأبعاد المشكلة فى زمن كانت السيوف فيه هى السلاح الوحيد بين الحاكم والمحكومين ، وكانت سلاحا مباحا ومتاحا لكلا الطرفين أما اليوم وقد انفردت السلطة التنفيذية دون المحكومين بأغرب أنواع الأسلحة الحديثة تكنولوجيا وعلميا وأعجب وسائل المخابرات تكهنا وتجسساً ، فإن المشكلة تصبح أكثر تعقيداً وأدعى لوقوع الفتنة والفوضى .

والباحث المسلم العصرى والمدقق والمتأنى لا يسعه إزاء هذه المشكلة إلا أن يعترف بأهمية الدور الذى يؤديه نحوها النظام الحزبى الحديث الذى سبقنا إليه الغرب كفن من فنون السياسة .

وما علينا الآن إلا أن نأخذ به مقيداً بأصول الشريعة المتفق عليها إذا شئنا أن ننهج على غرار جماعة أهل السنة فى ترك أقوى المكروهين واختيار أخف الضررين.

هذا وبالنسبة لآراء وأفكار جماعة أهل السنة فى الفقه والعقيدة ، فأعمالهم فى هذا المجال فى غنى عن التعريف وأكثر ثراء عما جادوا به فى مجال الفكر والبحث السياسى ويكفيهم فخراً أن يكون على رأسهم الأئمة الأربعة : مالك والشافعى وأبو حنيفة وأحمد بمذاهبهم الخالدة .

* * *

المبحث الثانى

أحدث الحركات السياسية الإسلامية

١ — الوهابية :

الوهابية نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب الذى ظهر فى الصحراء الغربية والمتوفى سنة ١٧٨٧م وكان قد درس وتعمق فى مؤلفات ابن تيمية ونذر نفسه لإحياء مذهبه .

والإسلام فى نظر الحركة الوهابية دين ودولة وسيف ومصحف فحمل أتباعها السيف لمحاربة المخالفين .

وأهم أفكارهم السياسية :

١ — الدعوة إلى الفكرة بقوة السيف مادام الهدف إقامة السنة وإماتة البدعة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تحقيقا لقوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر »

(سورة آل عمران آية ١١٠)

٢ — مقاومة الحكم العثمانى والتمرد على العثمانيين ولم تقو الدولة العثمانية على القضاء عليهم حتى تصدى لهم وهزمهم محمد على والى مصر فاقتصر نشاطهم على القبائل العربية .

٣ — هدم الأضرحة وتخريبها حتى وصفهم البعض بهدامى المعابد وحينما آل إليهم الأمر فى البلاد الحجازية هدموا كل قبور الصحابة وسووها بالأرض .

وأهم أفكار الحركة العقائدية :

١ — عقيدة الوهابية ماجاء به ابن تيمية فى الأصل ثم شددوا ورتبوا وفرعوا أموراً لم يتعرض لها ابن تيمية .

٢ — توسعوا فى معنى البدعة فكانوا فى ذلك أقرب إلى حزب الخوارج ومن ذلك قولهم بتحريم الدخان واعتبار المدخن كالمشرك وكانوا يحرمون على أنفسهم القهوة وإقامة الأضرحة والطواف حولها فى نظرهم وثنية واستنكروا التصوير الفوتوغرافى ومنعوا تجديد الستائر على الروضة الشريفة .

وبينما كان محمد بن عبد الوهاب رائد الحركة فكريا وعقائديا قاد الحركة فى ميدان الحرب والصراع السياسى محمد بن سعود جد الأسرة السعودية الحاكمة حالياً وكانت الرياض مركز الدعوة .

٢ — السنوسية :

السنوسية نسبة إلى السنوسى جد مؤسس التنظيم محمد بن على بن السنوسى ابن العربى من سلالة الأدارسة وقد ولد محمد فى ٢٢ ديسمبر ١٧٩٨ م فى بلدة مستغانم بالجزائر والتحق بجامعة القرويين فى فاس كما تعلم بالأزهر فى مصر والتقى بكبار المشايخ فى الحجاز .

ولعبت الحركة السنوسية دورا كبيراً سياسياً وعقائدياً فى أكثر الأقطار الاسلامية وعلى رأسها ليبيا .

وأهم مبادئهم السياسية :

١ — الإسلام دين ودولة وعبادة وعمل وعلى كل حركة تنشد الإصلاح فى العالم الإسلامى أن تلتزم بالجانبين السياسى والعقائدى فى نفس الوقت .

٢ — عدم الاعتراف بتقسيم العالم الاسلامى عن طريق حدود جغرافية وعلى الحركة أن تمتد بنشاطها امتدادا شاملا عبر العالم الاسلامى كله .

٣ — الوعى بحركة التبشير المسيحية و عمل على نشر الإسلام وبخاصة بين الوثنيين واللاديفيين .

وأهم مبادئهم العقائدية :

١ — العودة إلى الكتاب والسنة والانتفاع بشتى المذاهب المختلفة فيما ييسر على المسلمين حياتهم ويناسب زمانهم ويحفظهم من البدع والضلالات .

٢ — طابع الزهد والخمول الذى تلجأ إليه أغلب الطرق الصوفية ليس من الإسلام فى شىء .

الهيكل التنظيمى للحركة :

الزاوية هى الوحدة التنظيمية للحركة السنوسية وهى مركز دينى سياسى وثقافى واجتماعى وعسكرى ويراعى فى مكان إختيارها بعض الأهداف السياسية والعسكرية كأن تنشأ فى مفارق الطرق أو على جبل لتصبح أشبه بالقلعة . وهى عبارة عن فناء واسع تحيط به بعض المرافق كالمسجد والمكتبة ومسكن للشيخ ومخزن للمتاع ومكان للضيافة وحجرات لسكن الطلاب وكانت القبيلة التى تنشأ الزاوية بأرضها تتبرع بجزء من الأرض لأتباع الحركة لزراعتها .

ولكل زاوية شيخ أو مقدم يقيم الشعائر ويعلم الطلاب ويباشر العقود وتشجع السنوسية الزارعة والتجارة وتعلم الرمى وتلقى العلوم العسكرية .

والخواص هم الذين يشرفون على إدارة الزوايا . وأكثر نشاط السنوسية فى الصحارى والواحات والقبائل ويطلق على زعيم الحركة لقب السيد عادة .

وأنشئت الزاوية الأولى سنة ١٨٢٧ م فى أبى قبيس بالقرب من مكة المكرمة. ثم أنشئت بعدها زوايا أخرى بالقرب من الطائف والمدينة المنورة وبدر وجدة . وغادر السيد الحجاز إلى مصر ثم إلى طرابلس سنة ١٨٤٠ وفى عام ١٨٤٣ أنشأ الزاوية البيضاء فى الجبل الأخضر فكانت المركز الرئيسى للدعوة وفى سنة ١٨٥٦ نقل المركز إلى الجغبوب . وجاء وقت كانت الجغبوب فيه أكبر مركز علمى فى شمال أفريقيا بعد القاهرة بفضل الدعوة السنوسية .

وتوفى السنوسى الكبير عام ١٨٥٩ ونقل السيد المهدى خليفته مركز الدعوة من الجغبوب إلى الكفرة فى عام ١٨٩٥ وعند وفاة السيد المهدى عام ١٩٠٢ كان للسنوسية ١٣٦ زاوية موزعة على النحو التالى :

برقة ٤٥ ومصر ٢١ وطرابلس ١٨ والجزيرة العربية ١٧ وفزان ١٥ والسودان ١٤ والكفرة ٦ .

وانتشر الإسلام بفضل الزوايا السنوسية حتى وصل تشاد ووسط أفريقيا ومن مركز الإدارة السنوسية فى قرية « التاج » بلغ التبشير الإسلامى بلادكور وتبستى وبركو وأندى ودارفور ووادای وكانم وتشاد وأرقر وبغرمى .

وابن السيد المهدى كما هو معلوم هو السيد محمد أدريس السنوسى ملك ليبيا السابق .

ويقول الدكتور أحمد شلبى عن السنوسية :

« هل تعتبر السنوسية من الطرق الصوفية ؟ إن أكثر الباحثين يعدونها من هذه الطرق ربما لأنها عملت على نشر الإسلام بأفريقية بوسائل مختلفة ، والذى أراه أنها ليست من الطرق الصوفية فتخطيطها ومنهاجها وأهدافها ليست كتلك التى ترتبط بهذه الطرق وحسبنا أننا أوضحنا خطوطها بايجاز ولا حرج أن يضعها كل باحث حيث شاء له تفكيره » .

٣ — الإخوان المسلمون :

نشأت جماعة الإخوان المسلمين بمصر فى عام ١٩٢٨ على يد معلم شاب هو الشيخ حسن البنا الذى بدأ نشاطه فى مدينة الإسماعيلية حيث كان يعمل بالتدريس هناك ثم انتقل إلى القاهرة فى عام ١٩٣٢ مدرسا بمدرسة عباس بالسبتية فانتقل معه مركز ثقل الدعوة إلى العاصمة .

وتطالب الجماعة بتطبيق الشريعة الإسلامية واقتفاء أثر الخلفاء الراشدين والعودة بالإسلام فكراً وعملا إلى عهده الأول ونبذ كل ما أدخله الغرب فى حياة المسلمين من مظاهر الفساد والانحلال .

والإسلام فى نظر الجماعة دين ودولة وسيف ومصحف وشعارهم : « الله أكبر ولله الحمد . الله غايتنا والرسول زعيمنا والقرآن دستورنا والجهاد سبيلنا والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا » .

وشارة الجماعة سيفان وبينهما مصحف ويطلق على رئيس الجماعة إسم المرشد العام .

وأهم أفكارهم السياسية :

١ — أن يصبح القرآن دستور الأمة ووقف العمل بالنصوص الدستورية المخالفة لأصول الشريعة الإسلامية .

٢ — الغاء الأحزاب ومقاطعة الأفكار العلمانية والشيوعية .

٣ — نبذ ماجاء به الغرب من نظم مالية وسياسية واجتماعية مخالفة لأصول الشريعة الاسلامية .

٤ — مناهضة الاستعمار ومقاومته فى كل شبر من أراضى المسلمين وكشف أساليبه وفضحها .

٥ — معاداة الصهيونية والاشتراك فى حرب فلسطين .

٦ — الاستفادة من النظام الحزبى الحديث بأهمية دور الهيكل التنظيمى فى نشر الدعوة. والخلية هى الوحدة التأسيسية فى تنظيم الإخوان ثم الشعبة ثم يتدرج التنظيم جغرافيا فى المراكز والمديريات مع وجود أقسام للطلبة والعمال حتى يصل إلى قمة الهرم فى العاصمة ممثلا فى مكتب الارشاد والجمعية التأسيسية.

وفكرهم العقائدى هو الإسلام المصفى والنقى على عهد الخلفاء الراشدين مع عرضه فى صورة مبسطة وغير معقدة تناسب العصر ولهم فى ذلك مؤلفات عديدة ومن كتابهم محمد الغزالى وصالح عشماوى وسيد سابق وعبد القادر عودة وسيد قطب ومن خطبائهم المجددين عبد الحميد كشك.

ومن مؤلفاتهم :

— رسالة المؤتمر الخامس ومذكرات الدعوة والداعية للشهيد حسن البنا.
— التشريع الجنائى الإسلامى مقارنا بالقانون الوضعى لعبد القادر عودة.
— تفسير « فى ظلال القرآن » لسيد قطب.
— فقه السنة لسيد سابق.
— دعاة لا قضاة لحسن الهضيبى.
— فقه الزكاة للدكتور يوسف القرضاوى.

وتم تنفيذ حكم الأعدام فى كل من عبد القادر عودة وبعض إخوانه وسيد قطب وبعض إخوانه فى عهد جمال عبد الناصر الذى اضطهدهم وحاكمهم مرتين.

وتم اغتيال حسن البنا فى عهد الملك فاروق وخلفه مرشداً عاماً للجماعة حسن الهضيبى الذى كان يعمل مستشاراً بالقضاء قبل ذلك وحكم عليه جمال عبد الناصر بالسجن. وتم حل الجماعة وحظر نشاطها فى عام ١٩٥٤.

وامتد نشاط الجماعة خارج مصر إلى الدول العربية والإسلامية ويحكم البعض على الجماعة بأنها ارهابية تأثرت فى أسلوب عملها بالفاشية العسكرية. ويبدو أن التاريخ لم ينصف الجماعة بعد لتكرار اضطهاد الحكام لها حتى اختلط الأمر على المؤرخين وبخاصة الأجانب منهم فجاء رأيهم فى الجماعة مناقضا لنفسه فى بعض الحالات من ذلك ماجاء فى مؤلف « النظم السياسية فى الدول العربية » لصاحبيه موريس فلورى وروبير مانتران إذ قالا عن الجماعة :

« ونهجت سياسة وطنية متطرفة مناهضة للحكومة ومعادية الإنجليز وجعلت الإرهاب سلاحها الأساسى » .

ثم قالا عن مرشدها حسن البنا :

« وندد حسن البنا بالاحزاب والمبادىء الأشتراكية والشيوعية ولكنه نظر بعين الرضا إلى الفاشية الايطالية والنازية الألمانية » .

ثم قالا أخيراً وفى نفس المؤلف :

« إلا أن حركة الاخوان المسلمين ظلت فيما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية إحدى المحاولات المصرية النادرة ذات الوعى التام بالواقع الاسلامى والعربى » .

ومن حق الإخوان على التاريخ أن ينصف كفاحهم فى الفترة الأخيرة فيذكر كلمته الفصل ويدلى بشهادته الأمينة فى حقيقة حادث المنشية وما أعقبه من إجراءات همجية ووحشية، وفى الأسباب الخفية وراء إعدام مفسر القرآن وشهيد الإسلام سيد قطب .

٤ — الجماعة الإسلامية فى « الباكستان »

انطلقت حركة الجماعة الإسلامية من لاهور وهى أكبر الحركات الإسلامية فى شبه القارة الأسيوية . ورائدها ومؤسسها الروحى والفكرى هو المسلم العالم أبو الأعلى المودودى والحركة تدرك فى وعى تام شمولية الإسلام وتلتقى فى كثير من أفكارها مع جماعة الإخوان المسلمين فى مصر .

والإسلام فى نظرها دين ودولة ولا وجـــه للحقيقة فيما يقال بفصل الدين عن السياسة .

وأهم أفكارها السياسية :

١ — نبذ الأحزاب السياسية وعدم الأخذ بالنظام الحزبى الغربى وفى ذلك يقول أبو الأعلى المودودى : « وفى مجلس الشورى الإسلامى لا يمكن أن ينقسم أعضاؤه جماعات وأحزاباً » .

٢ — رفض أساليب العمل السياسى الغربية الحديثة كالترشيح والانتخاب وفى ذلك يقول أبو الأعلى المودودى « ولا ينتخب للإمارة أو لعضوية مجلس الشورى أو لأى منصب من مناصب المسئولية من يرشح نفسه لذلك أو يسعى فيه سعياً ما فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« إنا والله لا نولى هذا العمل أحداً سأله أو حرص عليه » .

٣ — فقه الحركة هو أساس الإنقلاب الإسلامى فى نظرهم وفى ذلك يقول مفكرهم أبو الأعلى المودودى .

« فكذلك شأن الانقلاب الإسلامى فإنه لا تثمر شجرته ولا تؤتى أكلها إلا إذا قامت حركة شعبية على أساس النظريات والأحكام القرآنية ودعامة سيرة محمد صلى الله عليه وسلم وسنته الطاهرة . تقوم هذه الحركة الشعبية وتنهض وتقوى حتى تغير بجهادها المستمر العنيف أسس الجاهلية الفكرية والخلقية والنفسية والثقافية السائدة فى الحياة الاجتماعية وتأتى على بنيانها من القواعد » .

وفى نظرهم يمتحن القائمون بالدعوة فى محنة الحركة بالابتلاء فى صراعهم السياسى مع الحاكم ، والصابرون الظاهرون بعد البلاء هم بالحق الإلهى ودون عناء الترشيح والاختيار قادة الأمة والمستخلفون على تسيير دفة الأمور .

وفقه الحركة عند المودودى هو نفس فقه الحركة عند سيد قطب .

ويتزود الجماعة الإسلامية فى الباكستان الآن طفيل محمد وللجماعة فى البرلمان الباكستانى عضوان فقط من مجموع الأعضاء البالغ عددهم مائة وخمسة وأربعون عضواً .

وفكرهم العقائدى لا يخرج عن فكر السلفية والجمهور . ويصرح المودودى بإفادته وتأثره بابن تيمية وابن القيم .

٥ — حزب « سلامه التركى » أو حزب الانقاذ :

ومؤسسه الدكتور نجم الدين أربكان وكان أستاذاً فى كلية الميكانيكا ومن قبل درس فى ألمانيا والتقى بالطلاب العرب والمسلمين هناك .

وقد نشأ نجم الدين نشأة دينية وكان يميل فى البدء للحركة الصوفية ثم حدد مسار نشاطه فى حزبه السياسى الذى يرى فيه الحل الأمثل لانقاذ حال المسلمين فى الوضع الراهن .

وقد أسس حزبه فى بداية عام ١٩٧٠ (باسم حزب النظام التركى وحوكم على تصريحه بالسعى من أجل قيام دولة إسلامية متحدياً بذلك دستور أتاتورك العلمانى

وتم حل الحزب فى عام ١٩٧٢) ومنع نجم الدين من تأسيس حزب آخر حتى سنة ١٩٧٤ حيث قام أحد إخوانه من مؤسسى حزب النظام وهو سليمان عارف باستصدار أمر بتأسيس الحزب من جديد باسم حزب سلامه وسرعان ما أسندت رئاسة الحزب من جديد إلى نجم الدين أربكان .

وأهم أهداف الحزب :

١ — إقامة نظام حكم إسلامى دستوره القرآن .

٢ — النهوض بالمسلمين على مستوى العصر وبخاصة فى مجال التصنيع والتكنولوجيا الحديثة .

٣ — إعادة التعليم الدينى وتحفيظ القرآن .

٤ — إنشاء مدارس للغة العربية .

وانضم إلى الحزب عدد كبير من جماعة النور أو « جماعة نور جو » وكان يطلق عليهم « طلاب رسائل النور » نسبة إلى رسائل النور لصاحبها بديع الزمان التركى الذى اضطهده أتاتورك ونفته السلطه إلى غرب البلاد وحددت إقامته من سنة ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٥٠ فألف خلال هذه الفترة هذه الرسائل التى استهوت الشباب « شباب جماعة النور وهم أصحاب قوة ونفوذ سياسى فى الوسط الجامعى بالجامعات التركية وأصحاب فضل وراء نزول الحزب الدمقراطى فى انتخابات ١٩٥٠ ببرنامج يضم من النقاط الشجاعة والجديدة على الشعب التركى مايعود به إلى حظيرة الإسلام رغم كل الرواسب التى خلفتها دكتاتورية أتاتورك .

وأهم هذه النقاط :

١ — عودة الأذان باللغة العربية .

٢ — السماح للأتراك بالحج .

٣ — تدريس الدين بالمدارس .

٤ — إعادة مسجد « أيا صوفيا » .

وتزداد القاعدة الشعبية لحزب سلامة يوما بعد يوم ويضعه البعض الآن فى المرتبة الثالثة بين الأحزاب السياسية القائمة حالياً فى تركيا .

ويصبح الحزب بذلك أقرب الحركات الاسلامية الحديثة إلى التأثير فى قرارات السلطة أو الائتلاف معها رغم أنه أحدث هذه الحركات جميعاً ، ويصبح الأمل فى بلوغه الهدف أكثر احتمالا وأقرب منالا مقارناً بحركات أقدم كالأخوان المسلمين فى مصر والجماعة الإسلامية فى الباكستان .

فهل يمكن أن يكون ذلك بسبب خوضه السياسة يتحدث فى محالها بلغة أهلها ؟! أى عن طريق حزب سياسى !!

هذا ما يجب أن يهتم بدراسته والإفادة منه أصحاب الحركات السياسية الاسلامية الحـديثة .

وقبل ظهور الحزب الإسلامى التركى بزمن ظهرت فى إيران حركة «فدائيان إسلام» وزار المجاهد الإسلامى نواب صفوى القاهرة واتصل بجماعة الإخوان المسلمين وتعثرت حركته فى منتصف الطريق . . وكما وجدت فى إيران سراديب الفقه الشيعى الغامض ومخلفات الفكر القومى الفارسى وأحلام السلطة المتطلعة لذكرى «قورش» والمؤيدة لقيام حزب سياسى يدعو لبعث القومية الفارسية.. فإن طلائع البعث الإسلامى فى تركيا واجهت ما هو مثل ذلك وأكثر من ذلك وأمر . . حيث القومية الطورانية والعلمانية المادية ودسائس الصهيونيه العالمية وهمجية الديكتاتورية العسكرية . . ويبقى على الدارس المقارن لما آل إليه مصير الحركة الإسلامية فى كل من البلدين أن يبحث فى منهاج الحركة وأسلوب العمل السياسى الذى انتهجه كل فريق فى بلده .

الفصل الثالث

رأى فى الوضع المعاصر

المبحث الأول

أزمة العصر بين الأحزاب السياسية

والحركات الإسلامية الحديثة

إن حقيقة الأزمة وراء تخلف المسلمين دستورياً وسياسياً فى العصر الحديث إنما ترجع بالدرجة الأولى إلى خطأ شائع ومزدوج فى نفس الوقت ساهم بنصيب فيه كل من رجال الدين ورجال السياسة أو بمعنى آخر خطأ ذى حدين أو شقين .

الشق الأول من جانب الحركات الإسلامية والشق الثانى من جانب الأحزاب السياسية الحديثة وقادة الفكر والعمل السياسى فى بلاد المسلمين.

أو لا : خطأ الحركات السياسية الاسلامية الحديثة :

إن الخطأ الذى وقعت فيه الحركات السياسية الإسلامية الحديثة هو استنكارها للنظام الحزبى الحديث وإصرارها على التسمية بأسماء شتى كالجمعية والجماعة والحركة والطريقة . وحرص كل منها على ألا يطلق عليها إسم حزب على الاطلاق أو تعامل من الآخرين على أنها حزب سياسى .

وذلك خطأ سياسى على درجة كبيرة من الخطورة إذ فات أصحاب هذه الحركات ربما عن طيب قلب وحسن نية التنبه والتنبؤ للآثار المثبطة والمدمرة لنهضة الفكر الإسلامى السياسى فى العصر الحديث بسبب هذا الخطأ على بساطة مظهره ومثل هذه الحركات الإسلامية الواعية ما كان لها أن تتورط فى مثل هذا الخطأ حرصاً على مستقبلها ومستقبل الجماعة بصفة عامة .

وبيان ذلك الخطأ والآثار الممكن ترتبها عليه يتضح مما يلى :

(١) التنكر لواقع الأمر وحقيقته :

إن تسمية الشيء وتعريفه . إنما يرجع بالدرجة الأولى علماً وعالمياً لتوافر الأركان المطلوبة والمتعارف عليها ليستحق الشيء اطلاق الاسم عليه .

والحزب فى العرف السياسى الحديث وبصفة عامة وكما عرفه أستاذ القانون الدكتور سليمان الطماوى : جماعة متحدة من الأفراد تعمل بمختلف الوسائل الديموقراطية للفوز بالحكم بقصد تنفيذ برنامج معين » .

ومن هذا التعريف نستطيع أن نستخلص أربعة أركان عامة للحزب السياسى :

١ — وجود جماعة .

٢ — لديها برنامج سياسى معين يشتمل بطبيعة الحال على مبادىء اجتماعية واقتصادية ومالية وخلقية تحركها فلسفة معينة .

٣ — تعمل بالوسائل الديموقراطية .

٤ — تسعى للفوز بالحكم .

وهذه الأركان الأربعة متوفرة فى كل حركة إسلامية واعية وحديثة فكل حركة منها أولا وأخيراً جماعة ولديها برنامج إسلامى حسب تصورها ولا تستطيع أن تنكر العمل بالوسائل الديموقراطية ولو حادت أو انحرفت فى أسلوب عملها كما لا تستطيع أن تنكر عدم السعى للفوز بالحكم وإلا فكيف يتسنى لها تحقيق أهدافها وتحويل آمالها وبرامجها إلى واقع ملموس يستفاد منه .

وهذا فى الحقيقة هو شأن كل حركة إسلامية واعية تدرك تماماً حقيقة الإسلام وهو أنه دين ودولة وسيف ومصحف ولا يجارى الغرب فى فصله بين الدين والسياسة وأخذه بالعلمانية كرد فعل للصراع التاريخى السياسى الرهيب بين الدولة والكنيسة .

وعلى ذلك فكل حركة سياسية من هذا النوع وتتوافر فيها الأركان الأربعة المذكورة هى حزب سياسى بالدرجة الأولى شاء القائمون عليها أم لم يشاؤوا .

وفى استطاعة أى حركة من هذا النوع أن تطلق على نفسها اسم حزب الله كما أن من حقها أن تعتبر ما عداها من أحزاب وضعية أحزاب لا يرضى عنها الله ثم تقبل فى شجاعة مواجهة هذه الأحزاب فى صراع سياسى حر شريف الفصل والحكم فيه للكلمة الشريفة والحجة الناصعة والبقاء للأصلح . أما أن تنفى عن نفسها حقيقة أمر توافرت فيها أركانه الأساسيه والمتعارف عليها فهذا مما يجافى الواقع ويضعف من شأنها فى نظر الآخرين من الحكام والمحكومين .

(٢) البلبلة وعدم وضوح الرؤية :

تسمية الأشياء بأسمائها أدعى لجنى الثمار المرجوة منها وتحقيق الفائدة المنتظرة لها فلا خلاف على أن هناك فرقاً كبيراً بين الطريقة السنوسية فى برنامجها وأهدافها وبين غيرها من الطرق الصوفية كالشاذلية والرفاعية . السنوسية دين ودولة وسيف ومصحف وفرسان ورهبان كافحت المستعمر وقاومته ووصلت بأحد مشايخها إلى كرسى العرش أما الطرق الأخرى فرسالتها محدودة الوسائل والأهداف كما هو معلوم .

والسنوسية أقرب مما عداها من طرق الإسلام الشامل المتكامل وكذلك فى مصر فرق كبير بين ما تصبو إليه وتطالب به جماعة الإخوان المسلمين وما تنشده جمعية الشبان المسلمين . الأولى سيف ومصحف ودين ودولة والثانية محدودة الرسالة ذات أهداف اجتماعية ورياضية فحسب .

وإذا كان الفرق كبيراً فى الوسائل والأهداف لزم أن يكون التعريف واضحاً ومميزاً أمام جمهور المسلمين ولزم وضوح الرؤية وعدم الغموض فالتسوية فى التسمية قد توحى بالتسوية فى وجوب الانتماء للجماعة أو الحركة من عدمه . مع أن الفرق جد كبير . فالإنتماء إلى الحركات الإسلامية الشاملة والسياسية منها بالذات فرض بل واجب على كل مسلم بالغ مدرك بعكس الأمر فى الجماعات والجمعيات المحدودة الرسالة . وكانت جماعة المسلمين وصحابة الرسول الكريم أسرع إلى سقيفة سعد بن عبادة منهم إلى تجهيز جسد نبينا الطاهر وتشييعه صلى الله عليه وسلم .

(٣) التناقض فى القول والفعل :

إن لكل حركة سياسية إسلامية حديثة موقفاً سياسياً وبرنامجاً سياسياً واستنكار هذه الحركات للنظام الحزبى وإعلان عدائها للأحزاب السياسية الحديثة يوقعها فى تناقض محير قولا وفعلا فكراً وسياسة .

فهذه هى جمعية أم القرى ومفكرها عبد الرحمن الكواكبى وقد التزمت بموقف سياسى من الدولة العثمانية الحاكمة وقتها وضمن برنامجها النهوض بالموقف السياسى الراكد فى شتى الدول العربية . وفى الاجتماع السابع وضمن سرد أسباب الفتور من الأسباب السياسية ذكر « تفرق الأمة إلى عصبات وأحزاب سياسية »

وجاء فى محضر الاجتماع الأول للجمعية :

« فقوة جمعية منظمة من هؤلاء النبلاء كافية لأن تخرق طبل حزب الشيطان » .

وجاء أيضاً :

« لأن الجمعيات المنتظمة يتسنى لها الثبات على مشروعها عمراً طويلا يفى بما لا يفى به عمر الواحد الفرد وتأتى بأعمالها كلها بعزائم صادقة ، لا يفسدها التردد .

وهذا هو سر ما ورد فى الأثر من أن يد الله مع الجماعة وهذا هو سر كون الجمعيات تقوم بالعظائم وتأتى بالعجائب وهذا هو سر نشأة الأمم الغربية . وهذا هو سر النجاح فى كل الأعمال المهمة لأن سنة الله فى خلقه أن كل أمر كلياً كان أو جزئياً لا يحصل إلا بقوة وزمان متناسبين مع أهميته وأن كل أمر يحصل بقوة قليلة فى زمان طويل يكون أحكم وأرسخ وأطول عمراً مما إذا حصل بمزيد قوة فى زمان قصير » .

ونلاحظ فى هذا التعريف والتحليل أنه تعريف وتحليل لحزب سياسى وخاصة فى قول وهو سر نشأة الامم الغربية . كما نلاحظ وصفهم لأعدائهم بحزب وإن كان حزب الشيطان ووصفهم لأنفسهم بجمعية ولو قالوا حزب أم القرى ما زاد أو نقص المضمون الذى ينبنونه لحركتهم وإنما يرفع التناقض ويزيد وضوح الرؤية . ولأنه إذا كان تفرق الأمة إلى عصبيات وأحزاب سياسية هو سبب الفتور والنكبة على حد قولهم ففيم قيامهم وهم فرقة جديدة وعصبة تزاد إلى العصبيات وتضاف إلى الأحزاب الموجودة ؟

وهذه جماعة «الإخوان المسلمون» فى مصر يعلنون استنكارهم ورفضهم للنظام الحزبى الحديث وهم فى ثراء إنتاجهم الفكرى وعطائهم العقائدى وفى أخذهم بأحدث وأرقى أشكال التنظيم السياسى حزماً وتسلسلا وفى صلابة قادتهم وطلبهم الشهادة دون مبادئهم فى كل ذلك هم ترجمة صادقة وحقيقية لما يمكن أن يكون عليه أقوى وأقدر حزب سياسى حديث وفى نفس الوقت يصرون على أنهم لايشكلون حزباً سياسياً .

وعلى هذا الوضع من التناقض المحير نجد أغلب الحركات السياسية الإسلامية الحديثة وكرد فعل لموقفهم هذا يصدمهم الواقع حينما يطالبون حكوماتهم بإلغاء الأحزاب السياسية فما يكون من نظام الحكم القائم ومن الأحزاب السياسية الأخرى إلا مطالبتهم بالبدء بإلغاء أنفسهم أو التوقف بنشاطهم عند حد الوعظ الدينى دون التعرض لأهداف وبرامج سياسية .

(٤) التورط مع محترفى السياسة فى خداع الشعوب :

تلجأ بعض الحكومات إلى إلغاء الأحزاب السياسية وهدفها الحقيقى والباطن من وراء ذلك حظر النشاط السياسى على رجال السياسة الحقيقيين والقدامى ثم تقوم هذه الحكومات بعد ذلك بإنشاء تنظيمات سياسية وحيدة وخاصة بها ولكن تحت شعارات ومسميات جديدة بطبيعة الحال مثل الاتحاد القومى وتحالف قوى الشعب العاملة والاتحاد الاشتراكى كما حدث فى البرتغال ويوغسلافيا ومصر فى عهود سالازار وتيتو وعبد الناصر والحركات السياسية الدينية الشريفة أكرم من أن تنهج هذا النهج المناور وأحق من غيرها من الحركات باليقظة والتنبيه لمثل هذه الأساليب الخادعة فلا تلجأ لمثلها ولا تتورط مع أصحابها ومن الدروس المستفادة فى هذا الشأن ومن واقع تاريخ مصرنا الحديثة ما لجأ إليه الحاكم لخداع جماعة «الإخوان المسلمون» وشراء صمتهم طالما ينفون عن أنفسهم صفة الحزب السياسى حتى يتمكن من إلغاء الأحزاب السياسية الأخرى ثم يتفرغ للجماعة بعد ذلك فيسهل عليه القضاء على كل من الطرفين على انفراد .

وفى ذلك يقول الرئيس محمد نجيب :

« وضح لى تماما أن جمال عبد الناصر قد اختار فى هذه المرحلة أن يمضى فى طريق الإخوان المسلمين وأنه اشترى صمتهم بإعادة جماعتهم . . . وقد أغراهم ذلك على التهادن كفرصة انتهازية للقضاء تماما على فكرة عودة الأحزاب والحياة البرلمانية ثم الانفراد بالسلطة بعد ذلك . . وهم لا يدرون أن هذه المهادنة كانت موقفاً تكتيكياً لضمان سكوتهم فى محاولة القضاء على الديموقراطية وعلىّ شخصياً . ثم تعد خطة جديدة للإنقضاض عليهم بعد ذلك » .

ثانياً : خطأ قادة الفكر والعمل السياسى فى بلاد المسلمين

إذا كان لبعض زعماء الإصلاح الدينى بعض العذر فى تحاملهم على الحزبية ونفورهم من الانتساب إليها لمفهوم اللفظ الغالب عليهم من حيث الربط بينها وبين الفرقة والخلاف فإن ما هو أدهى وأمر ذلك الخطأ الذى يقع فيه أحياناً بعض قادة الفكر والعمل السياسى فى بلاد المسلمين من حيث أخذهم عن الغرب القول بالفصل بين الدين والسياسة ومحاولة تطبيق ذلك فى بلادنا دون مراعاة للفارق الكبير بين طبيعة الدين هنا والدين هناك . وقالوا بأن تظل الجمعيات الدينية بعيدة عن الشئون السياسية كما تقام الأحزاب السياسية على أسس غير طائفية وغير دينية .

مثال ذلك قول أحد أساتذة القانون الدستورى والأنظمةالسياسية المعاصرين وهو الدكتور عبد الحميد متولى :

« ثم أنه لا يجب ألا يفوتنا هنا أن نذكر كما فات أصحاب تلك الجمعيات الدينية السياسية أن يذكروا أن روح هذا العصر الذى نعيش فيه غيرمهيأة سواء أكان ذلك فى الدول الإسلامية أم فى غيرها لأن تتقبل حكماً تسيطر عليه جماعات أو جمعيات دينية . وليس أدل علىذلك من أن نذكر دولتين أنشئتا فىهذا العصر باسم الدين هما باكستان وإسرائيل . فباكستان إنما نشأت وأصبحت دولة عام ١٩٤٧ باسم الإسلام وبفضل جهود الحركة الإسلامية التى تزعمتها الرابطة الاسلامية والتى كان فى مقدمة برامجها وضع دستور إسلامى ومع ذلك لم يستطع علماء المسلمين من أعضاء تلك الرابطة الاسلامية أن يسيطروا على مقاليد الحكم ولم تستطع هذه الرابطة الحصول على الأغلبية فى الانتخابات النيابية أما إسرائيل فرغم أنها قامت على أساس الدين فإن الأحزاب الدينية الأربعة المعروفة هناك أحزاب ضعيفة » .

ويضيف سيادته :

« يهمنى هنا أن أوجه الأنظار إلى عدم الخلط بين أمرين مختلفين :

الأول : احترام تعاليم الدين وسيطرة الروح الدينية على نفوس المحكومين والحاكمين .

والثانى : هو سيطرة رجال الدين أو الجماعات الدينيه السياسيه على شئون الحكم . وهذا الأمر الثانى هو الذى نقف منه موقف المعارضه كما تعارضه كذلك فيما نعتقد روح هذا العصر فى كل قطر سواء كان إسلامياً أم غير إسلامى » .

ومن قبل كان لطفى السيد يقول :

« إن وحدة الاعتقاد سبب من أسباب المشابهات بين الأفراد وعامل من عوامل التضامن ولكنى أنكر أشد الانكار أنها تصلح لان تكون فى القرن العشرين قاعدة للأعمال السياسية التى يجب أن تبنى على المنافع لا على المعتقدات» .

وأخيراً صدر قانون الأحزاب السياسية الجديد فى مصر حيث ينص الشرط الثالث من شروط تأسيس أى حزب سياسى الواردة فى المادة (٤) على التالى : ـ

« — عدم قيام الحزب على أساس طبقى أو طائفى أو فئوى أو جغرافى أو على أساس التفرقة بسبب الجنس أو الأصل أو الدين أو العقيدة » .

ويجمل الرأى عند البعض ألا تقام الأحزاب السياسية على أساس دينى وأن يحظر على الجمعيات الدينية العمل السياسى ويحظر على قادة هذه الجمعيات التفكير فى الوصول إلى مراكز الحكم لأن ذلك كله مما ترفضه روح العصر فى كل مكان .

وهذا خطأ من فاته تدبر أمر هذا الدين الإسلامى بطبيعته الشاملة ووقع تحت تأثير الفكر السياسى الغربى المؤسس على الفصل التام بين الدين والسياسة والسلطة الدينية والسلطة الزمنية بعد مالاقاه الغرب من عهود حافلة بالانحرافات والحروب الدموية المظلمة بسبب الصراع القائم بين الكنيسة والدولة وقتها .

والرد على أصحاب هذا الرأى المستورد بوساطة يتضح من النقاط التالية :

١ — إذا كان على رجال الدين والجمعيات الدينية السياسية ألا يزجوا بأنفسهم فى العمل السياسى فلمن نزلت الآيات الكريمة ؟ :

«ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» سورة آل عمران آية ١٠٤

« فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » . سورة التوبة آية ١٢٢)

ولمن قوله صلى الله عليه وسلم :

« من مات وليس فى عنقه بيعة فقد مات ميتة جاهلية » .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

«الدين النصيحة . . . قالوا لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

« أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

وهل تكون كلمة الحق والنصيحة فرضاً واجباً على الفرد المسلم ولا تكون كذلك على الجماعة أو الجمعية المسلمة وهى أقدر على ذلك وأدنى لجنى ثماره وتحقيق الحكمة والفائدة المرجوة من وراء ذلك .

٢ — إذا كان على الأحزاب السياسية ألا تقام على أساس دينى فما قيمة حزب سياسى فى بلد دينه الرسمى الإسلام ، والأغلبية الديمقراطية لسكانه من المسلمين ولا يعمل حساباً فى برنامج سياسته الخارجية لحماية المقدسات الدينية للمسلمين والدفاع عن حقوق الأقليات المسلمة فى بلاد غير المسلمين ولا يعمل حساباً فى برنامجه المالى والاقتصادى لرفض المعاملات الربوية والسعى من أجل تطبيق فريضة الزكاة ولا يعمل حساباً فى برنامجه الاجتماعى لعدم المساس بالأحوال الشخصية للمسلمين ولغيرهم طبقاً لأصول الفقه واجتهاد كبار الأئمة ولا يعمل حساباً فى برنامجه الدينى لرد الفعل المناسب لحركات التبشير من جانب أصحاب الأديان الأخرى

وهل يقدر على ذلك كله رجال السياسة دون الاستعانة برجال الدين وهل يصعب على رجال الدين صب ذلك كله فى قالب أو شكل سياسى عصرى أم على رجال الدين الشرح والفتوى ولرجال السياسة المناصب والمراكز .

إنها إذاً لقسمة جائرة مجحفة . إذ ربما كان رجل الدين أقدر فى المنصب على التطبيق والالتزام . ولماذا التصنيف والتمييز ولا يلتقى الطرفان فى تنظيم واحد

اصطلح العالم كله على تسميته حزب سياسي ؟! يتم من خلاله غربلة القيادة الخلاقة والقادرة على النبوغ في المجالين بغض النظر عن أصل التخصص سواء أكان من رجال الدين أصلا أم من رجال السياسة .

٣ — وإذا كان الهدف من هذه الدعوة مجاملة الأقليات الدينية أو حماية حقوقهم فليس من الدين أن يجامل المسلم على حساب دينه ويخش الناس والله أحق أن يخشاه وحسبه أن يرعى الله في دينه وحينئذ لاخوف على حق معاهد في ظل أهل دين يقول نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام :

« من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته أو انتقصه أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة » .

ويقول المعصوم أيضاً :

« اتق دعوة المظلوم ولو كان كافرا فعليه كفره » .

٤ — أما الحجة التي يرددها أصحاب هذا الرأي كثيرا في هذا المجال وهي الخوف من الصراع الطائفي والحفاظ على الوحدة الوطنية فالرد على ذلك أنهم بهذا الرأي إنما يردون الأمر إلى أصله وقياسا على رأيهم هذا يصبحون من الرافضين للنظام الحزبي كلية . والوحدة الوطنية لا خوف عليها من الصراع الحزبي فالأحزاب السياسية لها وظيفتها وفوائدها وتلجأ جميعها إلى الائتلاف الحزبي والوحدة في حالة تهديد الأمن الوطني وتصدى الكل لعدو مشترك .

والصراع الديني يرجع بالدرجة الأولى لتعصب بعض الأفراد ونظرة كل دين إلى مدى التسامح الديني المسموح به بالنسبة لاتباع الأديان الاخرى ووجود هذا الصراع الديني في أغلب حالاته غير مرتبط بالحزبية السياسية وهل كانت الاحزاب السياسية موجودة على عهد الحروب الصليبية . ؟

٥ — المذاهب والفرق السياسية وغير السياسية في الإسلام لم تعرف الفصل بين الدين والسياسة ولم يقل به واحد من المسلمين المجتهدين . وما من حزب سياسي ظهر في الإسلام قديماً أو حديثا إلا وله من الآراء في الدين والعقيدة بقدر ماله في

السياسة والحكم وما ورد ذكره فى الفصل الثانى من هذا الكتاب خير شاهد على ذلك .

وما تقسيم المذاهب فى الإسلام إلى سياسية وفقهية واعتقادية إلا نوع من أنواع تصنيف الدراسة وتسهيلها ووضع الشىء فى المكان الذى يناسبه من حيث الطابع الغالب عليه .

ولا يخفى على دارس أن أئمة الفقه لم يهملوا فى مذاهبهم ماثبت فى الكتاب والسنة مما يعد من شئون السياسة ونظام الحكم ولم يقف الأمر بالفقهاء أنفسهم عند حد الدراسة والفتوى بل التزموا سياسيا وقالوا قولة الحق عند السلطان الجائر وهذا هو الإمام مالك يناله اضطهاد الخليفة أبى جعفر المنصور فى فتوى سياسية .

وغالبية أئمة المذاهب الفقهية كانوا سياسيا ضمن حزب الأغلبية المعتدل حزب أهل السنة .

وحتى المذاهب الاعتقادية التى غلب على أصحابها طابع التخصص والبحث فى الالهيات والغيبيات نجد لهم مواقفهم السياسية الجادة قولا وفعلا .

فالمعتزلة مثلا تكلموا فى المسائل السياسية كالإمامة وجواز خطأ الصحابة وقارنوا بين سياسة عمر وسياسة على وقدموا الخليفة عمر ومعاوية فى مجال السياسة على الإمام على ذلك لاعتقادهم بحرية عمر ومعاوية فى الدين وتقيد على بنصوص الدين وقالوا بأن السياسى الناجح الذى يعمل برأيه حسب صلاح ملكه وافق ذلك الشريعة أم لم يوافقها .

وفى الحركة السياسية عند المعتزلة يقول أحمد أمين :

« وقد شوهت سمعة الجهم والحارث بن سريح تشويها كبيرا خصوصا على يد المحدثين وعلى يد الساسة لأنهما أعلنا الثورة على الدولة الأموية وطالباها بالعمل بالكتاب والسنة والشورى . وأرادت الدولة الأموية أن تعطيهما مالا كثيرا لقاء سكوتهما عنها فأبيا وألحا فى طلب العدل وكانا من أول الخارجين عليها وتكوين الجيوش ضدها فى الحركة التى انتهت بسقوط الدولة الأموية كما يؤخذ من كتب التاريخ ولكنهما كما يظهر لم يكونا على علم كبير بالحديث وإنما كانا عقليين

فى تفكيرهما فهاجمهما رجال الحديث وشوهوا سمعتهما . ومن سوء الحظ أنهما قتلا فى عهد مروان بن محمد آخر أمراء الدولة الأموية » .

وخلاصة الأمر أنه لا يقول بالفصل بين الدين والسياسة مسلم يتلو قول الله تعالى :

« قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

(سورة الأنعام آية ١٦٢، ١٦٣)

٦ — من غرائب هذا العصر التى إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى غفلة المسلمين وطفولة فكرهم السياسى بحق ، أن نرى الأحزاب الدينية قائمة فى كل الدنيا موجودة ومصرحا بها دستوريا وبيننا فى لبنان واسرائيل ويتصدر القائمة فى كل دول أوربا الحزب الديمقراطى المسيحى ونحرمها قانونا فى بلادنا.

ويصبح مضمون المعادلة الصعبة على الفهم أن الذين صدروا لنا مبدأ الفصل بين الدين والسياسة تسمح قوانين بلادهم بوجود أحزاب دينية وفى بلاد المسلمين لاتقام الأحزاب على أساس دينى وكان العكس هو الأولى لوجود الفارق بين الدين هنا والدين هناك فالدين الإسلامى الكامل المتكامل لديه رصيده الخالد والصالح لكل زمان ومكان فى شتى المجالات التشريعية اقتصادية واجتماعية وسياسية .

وهناك تجمدت نصوصهم الدينية التشريعية عند حد معين يعجز عن ملاحقة تطور الزمان وتبدل المكان .

٧ — ومن غرائب القول بالفصل بين الدين والسياسة التى لا تنتهى . أن يأتى اليوم الذى نرى فيه الشرعية تمنح للأحزاب الشيوعية لأنها أحزاب سياسية ولا تمنح للأحزاب الدينية مع أن الأحزاب الشيوعية تعتبر دينية بالسلب فلها موقف من الدين هو دينها الجديد . وتصبح المعادلة الصعبة والتى يستعصى على الفهم فك رموزها أن الشرعية السياسية تمنح لمن اتخذ من الدين موقف الإلحاد والإنكار ولا تمنح لمن اتخذ من الدين موقف الإيمان والإكبار !!

المبحث الثـــانى

أقرب النظم الحزبية

لروح الشريعة الإسلامية

أقرب النظم الحزبية لروح الشريعة الإسلامية وأنسبها لوضع المسلمين الراهن هو نظام تعدد الأحزاب المقيدة فى برامجها وأهدافها وأسلوب عملها بأصول الشريعة المتفق عليها .

وعلينا أن نعرض أولا لصورة مبسطة للشكل الذى ننشده فى هذا المجال ثم الأسباب المبررة لذلك .

أولا : صورة مبسطة لأقرب النظم الحزبية لروح الشريعة الإسلامية :

إن تعدد الأحزاب الملتزمة بالمبادىء والأصول المتفق عليها من جمهور علماء المسلمين إنما يعنى ببساطة موافقة نظام الحكم القائم على قيام أحزاب سياسية وما من دولة حديثة تسمح بذلك إلا وبها لجنة أو هيئة دستورية محددة يوكل إليها النظر فى برنامج كل حزب جديد للموافقة على قيامه من عدمه ملتزمة فى ذلك بالنظام العام للدولة .

وعلى هذا فالقول بأحزاب سياسية مقيدة بمبادىء الشريعة وأصولها يستلزم تمثيل هيئة كبار العلماء من رجال الدين فى اللجنة الموكل إليها النظر فى برنامج كل حزب جديد .

ولأن النظام الحزبى الآن فن من فنون السياسة الحديثة فإن لجنة من هذا النوع وتسند إليها مثل هذه المهمة يجب أن تضم عناصر ثلاثة : عنصر رسمى يمثل السلطة وعنصر من كبار الأئمة والعلماء يمثل رجال الدين وعنصر من أساتذة الدستورى والأنظمة السياسية يمثل رجال الفكر السياسى الحديث .

والأحزاب السياسية الحديثة بصفة عامة ومجملة ومن وجهة نظر الشريعة لا تخرج عن واحدة من ثلاثة :

(١) أحزاب مرفوضة : كالأحزاب الشيوعية والعلمانية والماشية .

(٢) أحزاب فيها اجتهاد ونظر : كالأحزاب القومية والرأسمالية والاشتراكية .

(٣) أحزاب مقبولة : كأحزاب المناسبات والأحزاب الشخصية والأحزاب المعارضة والأحزاب العقائدية فى ظل النظام العام للاسلام .

(١) أحزاب مرفوضة :

١ ـ الأحزاب الشيوعية

والشيوعى فى حكم المرتد . والمرتد يقتل باتفاق الفقهاء واختلفوا فى حكم المرتدة قال بعضهم تقتل والبعض الآخر قال تستتاب فإن لم تتب حبست .

وروى البخارى وأبو داود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« من بدل دينه فاقتلوه » .

وروى الجماعة أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك للجماعة » وهو متفق عليه .

وروى الدارقطنى أن أم مروان ارتدت عن الإسلام فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن تستتاب وإلا قتلت .

ومن الأقوال والأعمال التى قال العلماء بدلالتها على الردة :

ـ إنكار ما هو ثابت بدليل قطعى لا شبهة فيه من أمور الاعتقاد كانكار نزول القرآن من عند الله .

ـ إنكار الفرائض الثابتة بدليل قطعى كفريضة الصلاة أو الصوم أو الحج أو الزكاة .

— إنكار المحرمات الثابتة كتحريم الخمر وتحريم الربا .

— سب النبي عليه أفضل الصلاة والسلام وقد قال تعالى «صلوا عليه وسلموا تسليما» .

● هذا والشيوعية كما نعلم تنكر الدين كله بل وتتهمه بتخدير الشعوب وترد إليه تخلفها وتأخرها .

ولا يحتج أصحاب العقيدة الشيوعية فى ذلك بمصادرة حريتهم فأهم بلاد العقيدة الشيوعية لا تمنح الشرعيه لحزب آخر غير الحزب الشيوعى .

كما أن المسلم به دولياً وسياسياً هو أن الحرية التى تمنح للأفراد مقيدة بالنظام العام المعمول به وبعدم إلحاق الأذى بالآخرين .

والنظام العام لدولة إسلامية موحدة يرفض الشرك شكلا وموضوعا وأى أذى يلحق بالمسلم الغيور على دينه أكثر مرارة من تعطيل حد من حدود الله ومن منح الشرعية لعدو من أعداء الله ينكر وجوده سبحانه وتعالى .

وقديماً قال الفيلسوف جون ستيوارت مل مقرا بهذه الحقيقة :

« إن الهدف الوحيد من وراء استعمال السلطة القانونية للحد من حرية أى عضو من أعضاء المجتمع المتمدين رغماً عن إرادته هو إيقافه عن إيقاع الأذى بالآخرين » .

وهل ينتهى الأمر عند حد الموافقة على قيام حزب شيوعى؟ إن سوريا وغيرها من بلاد العرب والمسلمين منحت الشيوعيين هذا الحق فماذا كانت النتيجة ؟ لابد وأن تكون سلسلة من التنازلات المعادية لروح الشريعه وعلى سبيل المثال : إن الصياغة الحديثه للقسم فى الدستور السورى تقول « أقسم بشرفى ومعتقدى . . » ورفع لفظ الجلالة من الصياغة تمشياً مع هذه الشرعية التى منحت للشيوعيين فمن حقهم علينا وقد منحناهم الشرعية أن ينكروا قسما يردد « أقسم بالله العظيم . . . » وهم لا يؤمنون بإلهنا العظيم .

٢ ـ الأحزاب العلمانية

كلمة العلمانية هى الترجمة العربية الشائعة للكلمة الانجليزية Secularity المشتقة من كلمة Secular وهى ترجمة خبيثة وخادعة وغير أمينة لأن كلمة Secular تعنى دنيوى أو زمنى أو عالمى أو ثابت أو دائم أو طويل المدى والأحزاب العلمانية فى أصلها هى التى تفصل بين الدين والسياسة وبين السلطة الدينية والسلطة الزمنية بل وتهمل الدين وتنكره وكان الأولى بالترجمة الصادقة للكلمة أن تكون الدنيوية أو اللادينية أو الغير دينية هــذا وكلمة Secular مرادفة فى الانجليزية لكلمة Unrelegious وهذا هو المضمون والمعنى الحقيقى وهو ما ذهب إليه فكراً وعملا كل من دعا لحزب علمانى إلا أن الذين ترجموا الكلمة بالعلمانية يعلمون جيداً مدى الحب العميق والمتأصل فى قلوب العرب لدينهم ولو ترجمت باللادينية لباءت دعوتهم بالفشل فاختاروا لترجمتها تسمية تقدس العلم وترفع شعاره وتخدع المتلقى لها فى أول وهلة ولكن التجارب التى مرت وتمر بالمنطقة من خلال أحزاب علمانية كشفت حقيقة الأمر وأقرب الأمثلة لذلك حزب الشعب الجمهورى فى تركيا على يد مؤسسه مصطفى كمال أتاتورك .

وكل أحزاب علمانية بهذا المعنى وعلى هذا الموقف من قضية الدين مرفوضة كلية من وجهة نظر الشريعة الإسلامية .

والله تعالى يقول فى كتابه العزيز :

« قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » . (سورة الأنعام آية ١٦٢، ١٦٣)

٣ ـ الأحزاب الفاشية أو العسكرية

وهى الأحزاب التى تعتمد على السلاح واستخدام العنف فى نشر مبادئها وفرض أفكارها وتلجأ إلى إنشاء كتائب عسكرية مدربة تستعين بها فى التغلب على خصومها والوصول إلى الحكم كالحزب النازى الألمانى والحزب الفاشستى الإيطالى وأغلب الأحزاب المنانية .

وأمر هذه الأحزاب مرفوض من وجهة نظر الشريعة الإسلامية لسببين هامين:

الأول : حرص جمهور علماء السنة على تجنب وقوع الفتنة والفوضى ودستورهم فى ذلك ترك أقوى المكروهين وإختيار أخف الضررين . وعلماء السنة اليوم أشد حاجة إلى هذا الحرص من علماء الأمس وقد تغيرت نوعية السلاح وأصبحت السلطة أقوى عدة وعتاداً بكل المقاييس.

والثانى : أن الأصل فى الدعوة للإسلام هو المجادلة بالتى هى أحسن ويقول تعالى فى كتابه العزيز :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

(سورة النحل آية ١٢٥)

وقوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

(سورة الأعراف آية ١٩٩)

وقوله تعالى : « ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »

(سورة فصلت آية ٣٤)

وقوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » .

(سورة البقرة آية ٢٠٨)

هذا ويهمنا فى هذا المجال أن نفرق بين أمرين هامين ومختلفين تماما . استخدام السلاح والعنف فى نشر الحزب لمبادئه والوصول للحكم وهذا مرفوض كلية . أما إذا كان إستخدام السلاح وتدريب الكتائب العسكرية بعلم السلطة القائمة وموافقتها وبهدف توجيهه لصد عدو احتل البلاد فهذا لاغبار عليه بالمرة وكل عمل فدائى يهدف إلى تحرير شبر من بلاد المسلمين المحتلة أمر تدعو إليه الشريعة بالبديهة بل وتشجعه.

(٢) أحزاب فيها اجتهاد ونظر :

١ — الأحزاب القومية

والأحزاب القومية مثل حزب الشعب الجمهوري في تركيا الذي قام على بعث القومية الطورانية وحزب البعث العربي الذي قام على بعث القومية العربية والحزب القومي السوري الذي قام على بعث القومية السورية .

ورغم أن لبعض هذه الأحزاب قاعدة شعبية عريضة في بعض الدول العربية والإسلامية إلا أنها من وجهة نظر الشريعة الإسلامية محل بحث ونظر .

وأهم ما يثار في هذا الشأن :

أولا : رد بعض الأئمة والمفسرين بأن الإسلام دين عالمي بعث للإنسانية كافة وليس دين جنس أو قومية أو شعوبية معينة .

وفي ذلك يقول الإمام الأكبر محمود شلتوت عن الرسالة المحمدية :

(أنها موجهة إلى جميع الناس في جميع أجناسهم ولغاتهم : الموجودين منهم وقت حياته والموجودين منهم بعد مماته إلى يوم الدين :

« قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » .

(سورة الاعراف آية ١٥٨)

« وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » .

(سورة الأنعام آية ١٩)

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

(سورة الأنبياء آية ١٠٧)

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » .

(سورة سبأ آية ٢٨)

وقد حكى القرآن رسالات غيره ممن تقدم بعنوان القومية خاصة :

« لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه » (سورة الأعراف آية ٥٩)

« والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره »
(سورة الأعراف آية ٦٥)

« والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم أعبدوا الله مالكم من إله غيره »
(سورة الأعراف آية ٧٣)

« ولوطا إذ قال لقومه » (سورة الأعراف آية ٨٠)

« وإلى مدين أخاهم شعيبا » (سورة الأعراف آية ٨٥)

« ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه »
(سورة الأعراف آية ١٠٣)

وقال فى شأن عيسى « ورسولا إلى بنى إسرائيل »
(سورة آل عمران آية ٤٩)

ويقول سيد قطب فى تفسيره « فى ظلال القرآن » : —

« إن الوشجية التى يتجمع عليها الناس فى هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الربانى الكريم . إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب وليست وشيجة الأرض والوطن وليست وشيجة القوم والعشيرة وليست وشيجة اللون واللغة وليست وشيجة الجنس والعنصر وليست وشيجة الحرفة والطبقة . . إن هـــذه الوشائج جميعها قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد كما قال الله سبحانه وتعالى لعبده نوح عليه السلام وهو يقول : رب إن ابنى من أهلى . . « يا نوح إنه ليس من أهلك » ثم بين له لماذا يكون ابنه ليس من أهله . . . « إنه عمل غير صالح » . . إن وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح « فلا تسألن ما ليس لك به علم » فأنت تحسب أنه من أهلك ولكن هـذا الحسبان خاطىء . أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك ، ولو كان هو ابنك من صلبك » .

ويقول أيضا :

« ومن ثم ينبغى أن تكون العقيدة ـ فى المجتمع الإنسانى الذى يبلغ ذروة

الحضارة الإنسانية ـ هى آصرة التجمع . لأنها العنصر الذى يتعلق بأخص خصائص الإنسان المميزة له عن البهائم . ولا تكون آصرة التجمع عنصرا يتعلق بشيء يشترك فيه الإنسان مع البهائم من مثل الأرض والمرعى والمصالح والحدود التى تمثل خواص الحظيرة وسياج الحظيرة . ولا تكون كذلك هى الدم والنسب والعشيرة والقوم والجنس والعنصر واللون واللغة . . فكلها مما يشترك فيه الإنسان مع البهيمة . وليس هناك إلا شئون العقل والقلب التى يختص بها الإنسان دون البهيمة .

كذلك تتعلق العقيدة بعنصر آخر يتميز به الإنسان عن البهائم . . هو عنصر الاختيار والإرادة فكل فرد على حدة يملك أن يختار عقيدته بمجرد أن يبلغ سن الرشد وبذلك يقرر نوع المجتمع الذى يريد أن يعيش فيه مختارا ونوع المنهج الاعتقادى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى والخلقى الذى يريد بكامل حريته أن يتمذهب به ويعيش . . . ولكن هذا الفرد لا يملك أن يقرر دمه ولونه وقومه وجنسه . كما لا يملك ان يقرر الأرض التى يحب أن يولد فيها ولغة الأم التى يريد أن ينشأ عليها . . إلى آخر تلك المقومات التى تقام عليها مجتمعات الجاهلية . إن هذه الأمور كلها يقضى فيها قبل مجيئه إلى هذه الأرض ولا يؤخذ له فيها مشورة ولا رأى . إنما هى تفرض عليه فرضا سواء أحب أم كره فإذا تعلق مصيره فى الدنيا والآخرة معا ـ أو حتى فى الدنيا وحدها ـ بمثل هذه المقومات التى تفرض عليه فرضا لم يكن مختاراً ولا مريداً وبذلك تسلب إنسانيته مقوما من أخص مقوماتها وتهدر قاعدة أساسية من قواعد تكريم الإنسان بل من قواعد تركيبه وتكوينه الإنسانى المميز له من سائر الخلائق » .

ويقول أخيرا :

« لقد اجتمع فى المجتمع الإسلامى المتفوق : العربى والفارسى والشامى والمصرى والمغربى والتركى والصينى والهندى والرومانى والإغريقى والأندونيسى والإفريقى . . إلى آخر الأقوام والأجناس . . وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة فى بناء المجتمع الإسلامى والحضارة الإسلامية ولم تكن

هذه الحضارة الضخمة يوما ما « عربية » إنما كانت دائما « إسلامية » ولم تكن يوما « قومية » إنما كانت دائماً « عقيدية » .

وموقف سيد قطب من الفكرة القومية قاطع وحازم بينما كان مؤسس جماعة الإخوان ومرشدنا الأول حسن البنا يؤمن بالحلقات الثلاث الوطنية والقومية والإسلامية ولا يرى تعارضا بينها ومن المنجيات العشر التى أوصى بها احترام القومية والدعوات الصادقه يكتب لها الخلود بقيام روادها بالتصحيح والتجديد والإضافة والاجتهاد كلما لزم ذلك دون خجل أو تردد فى دين الله ولعل الجماعة تعيد النظر فى موقفها من نظرية الحزب قياسا على موقف المفكر العظيم سيد قطب من النظرية القومية .

ثانيا : أن الاحزاب القومية الحديثة تأخذ بالاتجاه العلمانى غالبا كما هو الشأن مع حزب الشعب التركى وفكر رئيسه أتا تورك وحزب البعث العربى وفكر مؤسسه ميشيل عفلق وفى الوثيقة ١ — للدستور الذى وضعه الحزب السورى القومى لنفسه جاء فى المادة الثالثة : أن المبادىء الإصلاحية خمسة والثلاثة الأولى منها هى :

المبدأ الأول : فصل الدين عن الدولة .

المبدأ الثانى : منع رجال الدين من التدخل فى شئون السياسة والقضاء القوميين .

المبدأ الثالث : إزالة الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب .

* * *

٢ — الأحزاب الرأسمالية

ومحل الاجتهاد والنظر فى أمر الأحزاب الرأسمالية أن ما جاء به الفكر الرأسمالى والبورجوازى لا يقبل كله من وجهة نظر الإسلام كما لا يرفض كله حيث للفكر الرأسمالى الغربى جوانب ثلاثة :

(أ) الجانب العلمى : معبرا عنه بالثورة التكنولوجية والعلمية فى شتى المجالات

وعلى رأسها مجال التصنيع وروح الإسلام لاتعترض على الأخذ بشتى السبل والوسائل العلمية المريحة والمساهمة فى تطور الجنس البشرى والنهوض به .

(ب) الجانب الاقتصادى والمالى : ولا خلاف على أن الإسلام رفض رفضا قاطعا كل أنواع التعامل بالربا .

وقد قال تعالى فى كتابه العزيز : « وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » .

(سورة الروم آية ٣٩)

وقال تعالى : « ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

(سورة آل عمران آية ١٣٠)

وقال تعالى : « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون » .

(سوره البقرة آية ٢٧٨ وآية ٢٧٩)

وروى البخارى ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذى وصححه عن جابر بن عبدالله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه » .

هذا هو الربا الذى لاخلاف عليه أما ماوقع فيه الخلاف ويستحق من فقهاء العصر ورجال المال المسلمين الاجتهاد والنظر فهو أنواع أخرى من المعاملات المالية الحديثة كالتأمين بأنواعه وشهادات الاستثمار وايداع المال الخاص فى البنوك نظير رسم محدد وبدون فائدة أونظير فائدة والتعامل العصرى بالأسهم أو بالسندات كل ذلك من وجهة نظر الشريعة مع مراعاة ماجاء به الفكر الرأسمالى من نظام مصرفى يستخدم النقود والبنوك كوسيلة أو كفن من فنون التعامل المالى والاقتصادى لتسهيل الدورة المالية الأمر الذى يؤخذ به عالميا الآن ولا رجعة فيه ولاغبار

عليه من وجهة نظر الإسلام فى حالة اخضاعه وتطويعه لروح الشريعة التى تحل البيع وتحرم الربا وتدعو للتعاون والتضامن .

(جـ) الجانب الخلقى والاجتماعى : ولا شك فى أن الكثير مما يلازم الفكر الرأسمالى من عادات اجتماعية وخلقية مرفوض من وجهة نظر الإسلام كبيع الخمر وشربها وانتشار نوادى المقامرة المراهنة والتصريح الرسمى من الدولة بممارسة البغاء. وكثير مما يدور فى الملاهى وعلى شواطىء البحار من انحلال خلقى تأباه وترفضه روح الإسلام بالنص الصريح والمتفق عليه .

هذا وعلى رجال السياسة المسلمين العصريين والمتأثرين باتجاهات الأحزاب الرأسمالية الغربية اليمينيه ملاحظة أمرين على درجة كبيرة من الأهمية :

ألاول : أن الأحزاب الرأسمالية تأخذ بمبدأ الفصل بين الدين والسياسة وهو أمر مرفوض من الشريعة الإسلامية ومردود لصراع الكنيسة القديم مع الدولة وخلو النصوص المسيحية من الرأى المفيد فى أغلب مشاكل العصر الحديث .

الثانى : أن الأخذ بشتى الأفكار والاتجاهات الغربية والحديثة فى مجال الاقتصاد والمال والمقبولة من وجهة نظر الشريعة لايعفى ولا يشفع لرجال الإقتصاد والسياسة المسلمين تركهم أو اهمالهم لفريضه الزكاة وعدم تطبيقها وقد أحل فيها أبو بكر دم المسلم الموحد الذى رفض أداءها وارتد عنها . فماتأخذه من الغرب ومدارسه الحديثة يجب أن يأتى فى المرتبة الثانية بعد الأخذ بما جاءت به الشريعة وتفرضه على أهلها فى كل زمان ومكان وفى كل مجال من مجالات المعاملات والعبادات .

٣ ـ الأحزاب الإشتراكية

الأحزاب الاشتراكية فى جميع أنحاء العالم تختلف فيما بينها بنسب متفاوتة فلسفة وسياسة ومحل الاجتهاد والنظر الواجب على فقهاء المسلمين وساستهم بالنسبة للأحزاب الإشتراكية الحديثة هو البحث فى أمور ثلاثة :

الأول : ما يحق للدولة التدخل فيه من شئون الاقتصاد والمال والتجارة الخارجية والداخلية وحق الفرد الأصيل فى التجارة عملا بقوله تعالى :

« وأحل الله البيع وحرم الربا »

(سورة البقرة آية ٢٧٥)

وقوله تعالى :

« إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم »

(سورة النساء آية ٢٩)

وقوله صلى الله عليه سلم : « إنما البيع عن تراض »

وقوله صلى الله عليه وسلم :

« تسعة أعشار الرزق فى التجارة »

وقوله صلى الله عليه وسلم :

« دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض »

وروى أصحاب السنن بسند صحيح عن أنس رضى الله عنه قال:

قال الناس : يارسول الله ، غلا السعر فسعر لنا ، فقال رسول الله : « إن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق . وإنى لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطالبنى بمظلمة فى دم ولا مال ».

ويقول سيد سابق :

«وقد استنبط العلماء من هذا الحديث حرمة تدخل الحاكم فى تحديد سعر السلع لأن ذلك مظنة الظلم والناس أحرار فى التصرفات المالية والحجر عليهم مناف لهذه الحرية ومراعاة مصلحة المشترى ليست أولى من مراعاة مصلحة البائع فإذا تقابل الأمران وجب تمكين الطرفين من الاجتهاد فى مصلحتهما » .

ويقول الشوكانى فى ذلك :

« إن الناس مسلطون على أموالهم والتسعير حجر عليهم والإمام مأمور برعاية مصلحة المسلمين وليس نظره فى مصلحة المشترى برخص الثمن أولى من نظره فى مصلحة البائع بتوفير الثمن ، وإذا تقابل الأمران وجب تمكين الفريقين من الاجتهاد لأنفسهم وإلزام صاحب السلعة أن يبيع بما لا يرضى به مناف لقوله تعالى:

« إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم »

وقال صاحب الهداية :

« ولا ينبغى للسلطان أن يسعر على الناس فإن كان أرباب الطعام يتحكمون ويتعدون فى القيمة تعدياً فاحشاً وعجز القاضى عن صيانة حقوق المسلمين إلا بالتسعير فحينئذ لا بأس به بمشورة من أهل الرأى والبصر » .

الثانى : استقلال المجتمع المسلم بأفكاره وآرائه الاعتقادية والسياسية والخلقية والاجتماعية غير متأثر بالمذاهب والأحزاب الاشتراكية فى هذا المجال فى صغيرة أو كبيرة وردت وثبتت فى كتاب الله وسنة نبيه .

الثالث : إن الأخذ بشتى الأفكار والاتجاهات الاشتراكية الحديثة فى مجال الاقتصاد والمال المقبولة من وجهة نظر الشريعة لا يعنى ولا يشفع لرجال الاقتصاد والسياسة المسلمين تركهم أو إهمالهم لفريضة الزكاة وغيرها من الفرائض الإسلامية المالية الثابتة كنظام المواريث والوصية وما ثبت فى هذا المجال مطلوب تحقيقه أولا. ويأتى فى المرتبة الاولى من حيث الضرورة والأهمية وبعد ذلك ننظر فى غربلة المفيد من الأفكار الاشتراكية الحديثة .

(٣) احزاب مقبولة :

والأحزاب المقبولة والمباحة فى ظل الشريعة الإسلامية ليست بنت اليوم بل منها أحزاب قامت على الفور وحتمتها الظروف وفرضها العقل والشرع دون انتظار فتوى بذلك . بل وكان على قائمة مؤسسيها بعض الأئمة وكبار رجال الدين . والأمر كما ذكرنا فيما هو مقبول من وجهة نظر الشريعة من عدمه مردود أولا وأخيراً للجنة مختصة يمثل فيها جمهور علماء السنة للنظر فى كل حالة على حدة وحسب ظروف الزمان والمكان .

وما نذكره هنا على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر :

١ — أحزاب المناسبات : وأهمها المناسبات التى تهدد أمن البلاد بدخيل يعتدى على حدودها فيتصدى لها حزب وطنى يعلن الجهاد حفاظاً على مقدسات المسلمين ومن ذلك أحزاب الاستقلال والتحرير ، والمناسبات التى تهدد أمن البلاد بحاكم طاغية يستبد بالعباد فيتصدى له حزب وطنى يصده عن غيه ويطالب بتحكيم الشرعية بين المحكومين والحاكم كأحزاب الدستور .

٢ — أحزاب الأشخاص : وهى أحزاب تفرضها شعبية بعض الأشخاص وقدرتهم على القيادة وكفاءتهم السياسية فيلتف حولهم ويتمسك بهم من يزكيهم ويثق بهم ويراهم أجدر بالزعامة من غيرهم وأقدر على العدل بين الناس وقضاء مصالحهم .

وهذا النوع من الأحزاب يفرض نفسه بعد اتفاق الكل عقائدياً بنفس القدر الذى تحتاج إليه فى حالة الخلاف الفكرى والعقائدى وما وقع فى يوم سقيفة سعد ابن عبادة خير شاهد على ذلك .

والحزب الفائز تسند إليه أمانة الحكم وتصبح الأحزاب الأخرى أحزاب المعارضة والشورى فإن وجود حاكم صالح وحزب صالح يطبق الشريعة الإسلامية ويجعل القرآن دستوراً لايغنى عن الحاجة لحزب معارض منظم . فدوام الحال من المحال ودوام الحاكم الصالح وحزبه غير مضمون وقد يتولى مثل هذا الحاكم المملقون وقد يخلفه خلف غير صالح .

ومعارضة الحاكم حالياً وتقديم النصح له والمشورة عليه وقول كلمة الحق عنده

غير ممكن الوقوع وغير مرجو الفائدة فى غياب معارضة حزبية قادرة ومؤثرة.

٣ — الأحزاب العقائدية :

وهى الأحزاب التى تقوم على فكرة عقائدية معينة أو اجتهاد عقائدى خاص حول مشكلة ملحة أو أمر أهم تفرضه وتطالب به الشريعة الإسلامية حسب ظروف الزمان والمكان.

وقد يرد البعض بأن الإسلام عقيدة واحدة وشىء واحد لا يسمح بالتجزئة والتفرقة ولكن الأمر على خلاف ذلك من حيث طبيعة العصر الذى تعقدت فيه المشاكل وتفرعت وتعددت التخصصات وتنوعت وتشعبت مصالح الفئات والطوائف وتفاوتت احتياجات البلدان واختلفت مسببات التخلف فى مكان عن مكان كما اختلفت ثقافات الشعوب.

وقد يرى بعض زعماء الاصلاح السياسى فى بلد من بلاد المسلمين أن خلاصهم فى تحرير بلادهم من المستعمر ويراه آخرون فى اصلاح النظام الاقتصادى ويرى غيرهم البدء بالدستور وتغييره وقد يبدأ حزب ما بالدعوة لوحدة المسلمين والتركيز على إعادة الخلافة وتحرير المسجد الأقصى.

وقد يختلفون فى موقفهم من الحكم على المسلمين فى هذا الزمان ما بين القول بالتكفير أو الأخذ باللين.

ومن قبل قامت الأحزاب السياسية فى صدر الإسلام واختلافها العقائدى على أمور فرعية من هذا النوع وكانت اختلافاتهم فى بعض الأحيان شكلية ومن نوع شاذ.

وقد قام فى الولايات المتحدة الأمريكية حزب سياسى يهدف تحريم المسكرات فحسب.

ومثل هذه الأحزاب العقائدية المحدودة الفكرة لاغبار عليها لأنها تنتهى بمجرد انجاز مهمتها. وقد تتلاشى أو تنقرض بانضمام أفرادها لحزب أكبر يتبنى فكرتها ضمن برامجه.

وعلى هذا الأساس تحدد مصير نظام تعدد الأحزاب فى الدول الانجلوسكسونيه وتطور إلى نظام الحزبين القائم حالياً.

ثانياً : الأسباب المبررة
للقول بتعدد الأحزب المقيدة بأصول الشريعة

إن القول بتعدد الأحزاب المقيدة بأصول الشريعة كحل سياسي ملائم لوضع المسلمين الراهن تبرره عدة أسباب هامة عامة وخاصة .

١ — الأسباب العامة :

وهي المرادف لما اتفق عليه علماء السياسة حديثاً من مزايا للأحزاب السياسية كمدارس للشعوب تقوم بتوضيح مشاكل السياسة للجماهير وبإعداد نخبة من القادة السياسيين يعهد إليهم بالحكم وبعرض أمين وصادق لما يعانيه عامة الشعب . كما تقوم بمعارضة الحكم ورجال السلطة قبل استفحال الأمور وتدهورها كما تحقق الاستقرار السياسي للدول بحل مشكلة انتقال السلطة بأقل قدر من الخسائر .

٢ — الأسباب الخاصة :

وهي أسباب تخص الوضع الراهن للمسلمين حالياً في الداخل والخارج .

أولا : الوضع الخارجي :

إن المجتمع المسلم لايعيش وحده في هذا العالم وهو مجتمع لايعرف العزلة فرسالة الإسلام رسالة عالمية للناس أجمعين وخاتمة الرسالات ومحمد عليه أفضل الصلاة والسلام نبي الناس أجمعين بعث للناس كافة ورحمة للعالمين :

قال تعالى :

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً »

(سورة سبأ آية ٢٨)

وقال تعالى :

« قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً »

(سورة الإعراف آية ١٥٨)

وقال تعالى :

« وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ »
(سورة الأنعام آية ١٩)

فمهمة المسلم في كل زمان ومكان لاتقف عند حد حماية دينه والمحافظة عليه بل وتمتد إلى تبليغه ونشره بين الناس كافة .

ويجمل القول في الوضع الخارجي الراهن والمحيط بأمة الإسلام أن العالم تتنازعه قوتان كبيرتان : الأولى تأخذ بنظام الحزب الواحد القائم على فلسفة الإلحاد .

والثانية تأخذ بحرية تعدد الأحزاب مع الإسراف في الانحلال . وفي ظل الأولى يختفي الإسلام بل وتختفي كل الأديان ولا يمكن المسلم من تبليغ دينه بل ولا الحفاظ عليه . أما في ظل الثانية فيستطيع المسلم الدعوة لدينه ونشره وتبليغه فقط يشاركه الآخرون الدعوة لمناهجهم ومعتقداتهم على مختلف أشكالها ما بين إيمان وإلحاد واعتدال وانحلال .

والمسلم إزاء هذا الموقف عليه عملا بما جرى عليه جمهور علماء السنة ترك أقوى المكروهين واختيار أخف الضررين . فيقف بكل قواه مؤيداً ومسانداً لما فيه بقاء الدين ومعارضاً ومعادياً لما فيه القضاء على الدين .

وسواء قبل المسلمون نظام الأحزاب في بلادهم أم لم يقبلوه فهم ملزمون بتحديد موقفهم من القوى المتصارعة من حولهم إذا كان مصير الدين ككل يتحدد على أساس هذا الصراع .

وكذلك على المسلمين تشجيع النظم التي تمكنهم من الدعوة لدينهم الحنيف بتشجيع كل ما هو معقول من هذه النظم مع نقله إلى بلاد المسلمين بعد تعديله وتطويره بما يتفق وأصول الشريعة الإسلامية .

وإذا كانت روسيا ودائرة نفوذها تأخذ بنظام الحزب الواحد الملحد والغرب ودوائر نفوذه يأخذ بنظام الحرية المطلقة في تكوين الأحزاب فخير ما تأخذ به دول المسلمين هو نظام تعدد الأحزاب المقيدة بالقيم الدينية الأصيلة . وصدق الله العظيم حيث يقول الله تعالى : في كتابه الكريم :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

(سورة البقرة آية ١٤٣)

ثانياً : الوضع الداخلى :

بالنسبة للوضع الداخلى الراهن لبلاد المسلمين توجد عدة أسباب هامة وملحة لتبرير المطالبة بتعدد الأحزاب السياسية .

١ — نظام الحكم القائمة

لا شك فى أن الدعاة الصادقين لفكرة تطبيق الشريعة الإسلامية والنهوض بشعوب المسلمين يلمسون جيداً أن نظم الحكم الحالية والقائمة فى بلادهم ليست على ما يجب أن يكون عليه الحال من وجهة نظر الشريعة .

فهناك نظام الحكم الملكى الجائر وهناك الجمهورى المستبد وهناك ما يأخذ بنظام الحزب الواحد وما يأخذ بنظام تعدد الأحزاب وما يرفض النظام الحزبى بالمرة ومنها ما يأخذ بالعلمانية ومنها ما يقدس الشعوبية ويرفع شعار القومية . وكلها تأخذ بالدساتير الوضعية وتهمل دستور الشريعة الإسلامية . وهنا سؤال يفرض نفسه كيف السبيل لأصحاب الدعوة الصادقة حتى يمكن لهم ويسمع صوتهم ؟ !

إنهم إذا قالوا بنظام الحزب والتنظيم الواحد قال الحاكم وأعوانه نحن الحزب الواحد الشرعى الممثل للشريعة الإسلامية على أحسن وجه وليس فى الإمكان أفضل مما هو كائن .

وإن قالوا برفض الحزبية ظلوا مطاردين من السلطة وجهودهم مبعثرة ومشتتة وعرضة لتنكيل السلطة واضطهادها فى كل حين .

والأمل الوحيد لأصحاب الدعوة الصادقة فى أى مكان وزمان هو المطالبة بشرعية تعدد المذاهب والأحزاب حتى يكسبهم ذلك شرعية البدء فى ممارسة نشاطهم بعيداً عن اضطهاد السلطة وعليهم بعد ذلك بقوة حجتهم ونصاعة رأيهم وشدة تماسكهم كسب الأغلبية الديموقراطية على من عداهم . أم يخشون منازلة غيرهم

ومعهم الحجة والبينة كما يقولون ؟ أم يظل نشاطهم فى حدود الوعظ والإرشاد ويتنظرون إلى ما شاء الله حتى يعتنق حاكم مبادئهم بالصدفة؟ أم يتحينون الفرص للوصول إلى الحكم باستخدام العنف وأى هذه السبل جميعاً أسلم وأبعد عن وقوع الفتنة ؟ !

٢ — وضع الشعوب الإسلامية :

لاخلاف على أن الشعوب الإسلامية اليوم قد ابتعدت كثيراً فى قيمها وعاداتها عن روح الشريعة ونصوصها: فحدود الله معطلة وفريضة الزكاة مهملة والربا مباح والخمر تباع وتشترى ونوادى القمار موجودة والنساء كاسيات عاريات على شواطىء البحار وفى الطرقات .

وبعض الدول الإسلامية تسمح بممارسة البغاء رسمياً مقابل ضريبة دخل تضاف إلى ميزانيتها من وراء ذلك . وبعض الدول الإسلامية تمنح الشرعية لأحزاب ملحدة كالأحزاب الشيوعية وبعض الحركات الجادة والحاكمة تتلبط فى متاهات الشعوبية والقومية والعلمانية .

لا خلاف على أن الشعوب الإسلامية اليوم أقرب إلى الجاهلية منها إلى الاسلام ولكن الخلاف فى كيفية النهوض بهذه الشعوب من السفح الهابط الذى تتردى فيه إلى القمة السامقة التى هى أهل لها . والأمر حينئذ يتطلب تغييراً جذريا وشاملا. والحاكم الذى يتصدى لمثل هذه المهمة الجلل سوف تعترضه ردود فعل وعقبات عديدة . ولكى تصبح مهمته سهلة وميسرة وطريقه مختصراً وممهداً عليه أن يصل إلى الحكم مؤيداً بأغلبية ديموقراطية. وهذا لا يتم إلا فى ظل نظام تعدد الأحزاب. وقد يتعجل البعض الأمور ويقول بأن دين الدولة الرسمى الإسلام ولا يؤمن بالأغلبية الشعبية الديموقراطية الحديثة ويرى أن أكثر الناس يجهلون ولا يعقلون وما على أصحاب الدعوة الصادقة إلا اعتلاء السلطة فى أقرب فرصة وبعدها يأخذون الناس قسراً فى دين الله .

وإن صح هذا فى جانب من الأمر فاحتمال الفشل فى أكثر جوانبه هو الغالب لأن ما اعتاده الناس من طباع وعادات جاهلية طال عليها العهد حتى أصبحت فى

حكم العرف وأخذهم بالعنف قد يجر كثيراً من الاضطرابات والانقلابات بتحريض من دعاة العلمانية

وقد كان جمهور علماء السنة يعملون الف حساب لتفادى احتمال وقوع الفتنة والفوضى .

والوقت الذى ينفقه أصحاب الدعوة الصادقة من خلال حزب سياسى حديث حتى ينالوا الأغلبية لا يعد وقتاً ضائعاً لأنهم ينفقونه فى تغيير النفوس وهذا هو الصعب فى المهمة لأن تغيير القوانين والنصوص بعد ذلك يتم بالرضا بين يوم وليلة .

والدعاة الصادقون لا يتعجلون القفز لمراكز السلطة كغيرهم من دعاة المذاهب الوضعية .

٣ — الوحدة الإسلامية والخلافة :

إن عز الإسلام فى وحدة المسلمين وكانت الخلافة رمز هذه الوحدة على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان . ومهما قال المشككون من ظلم بعض الخلفاء وطغيانهم فإن من حكام نظمهم الوضعية من طغوا فى البلاد وأشاعوا فيها الفساد أضعافاً مضاعفة وكانت الإضافة التى أضافوها هى تفرقة الكلمة وتشتيت وحدة المسلمين إلى دويلات قومية مبعثرة ومتناثرة فوقعت فريسة سهلة تحت يد القراصنة من المستعمرين من أعداء المسلمين .

ولم تكن الكارثة التى حلت بالمسلمين فى إلغاء الخلافة فى عام ١٩٢٤ وإنما فيما أعقب ذلك من أفكار علمانية وقومية فجة شاعت بين الناس فألفوها وأصبح مما اعتاد البعض قوله أن طبيعة العصر لا يناسبها قيام وحدة على أساس من الدين . كما لا يناسبها أن تقام احزاب سياسية على أساس من الدين . وعلى ذلك كان طبيعياً أن تعترف كل من إيران وتركيا بدولة إسرائيل وتصطدم إيران المسلمة بجيرانها من العرب المسلمين على خليج تصر على تسميته بالخليج الفارسى ويقول العرب بل الخليج العربى . وأصبح الشاذ والغريب أن تفكر تركيا فى الوحدة مع العراق أو تفكر إيران فى الوحدة مع إحدى الدول العربية .

أصحاب الدعوة الصادقة يفهمون ذلك جيدا ويفهمون الابعاد الحقيقية وراء التخطيط الذى أدى إلى هذا الوضع الشائن ولا خلاف على تشخيص الوضع وإنما

الخلاف على كيفية العلاج. والذين يتطلعون إلى إعادة البناء ويحلمون بعز الخلافة ومجد المسلمين ووحدة البلاد الإسلامية عليهم وهم يتدبرون الأمر جيداً أن يضعوا نصب أعينهم ما لا تقبله بحق طبيعة العصر وهو الوحدة على أسنة الرماح والسيوف لعهد بخلافة الأمويين والعباسيين وحتى العثمانيين وأن الحزب هو الذى حل اليوم محل السيف بالأمس فالعقيدة الشيوعية تنتشر اليوم معتمدة على الحزب ودولة كبرى كأمريكا يضم اتحادها خمسين ولاية لأن هناك حزبا كالحزب الجمهورى أو الحزب الديموقراطى تنتشر فروعه ومكاتبه فى الولايات الخمسين.

فإذا كان المسلمون جادين فى طلب الوحدة بين بلادهم فعليهم أولا بنظام تعدد الأحزاب السياسية التى لا تأخذ بالفصل بين الدين والسياسة وتلتزم بأصول الشريعة المتفق عليها وبمرور الوقت تلتقى وجهات النظر وتتحد الأحزاب المتقاربة فى المبدأ والهدف والوسيلة وينتج عن اتحادها ظهور أحزاب كبيرة قادرة على فرض هذه الوحدة أو يمتد نشاط أحد الأحزاب الصادقة عبر الحدود الجغرافية المصطنعة إزاء الشرعية التى يفرضها نظام تعدد الأحزاب هنا وهناك.

ولا شك أن هـــذه الوسيلة مهما طال الأمد بها فى النهاية أقدر على تحقيق ما نصبو إليه وأقوى على ذلك من محاولات ثنائية أو ثلاثية بين حكام مختلفى الأمزجة والانظمة ظاهر محاولاتهم معسول الكلام وباطن الامر فى شأنهم التوجس والخيفة وكم قامت محاولات من هذا النوع وكان مصيرها الفشل وزمان الفتوحات العسكرية انقضى ومضى وأصبحت الاحزاب السياسية الحديثة هى لغة العصر التى يتكلم بها الحكام ويتعامل بها رجال السياسة وقد سبقنا الغرب فى هـــذا المجال فاكتشف ما يمكن تحقيقه من مزايا عن طريق الاحزاب السياسية ومازلنا لا ندرك من الاحزاب أكثر من أنها تدعو إلى الفرقة والبغضاء وهل استطاعت النظم الرافضة للحزبية تحقيق أى نوع من الوحدة بيننا ؟

٤ — انتشار المكفرين :

ونعنى بالمكفرين أصحاب الحركات السياسية السرية فى الإسلام ممن يدعون إلى تكفير المجتمع ويجنحون للعنف الذى يسىء إلى الشريعة الاسلامية ولم يعد هناك خلاف على أن ظهورهم وانتشارهم أكثر وقوعاً فى ظل النظام الواحد بينما فى ظل

حرية تعدد الاحزاب يسهل كشفهم ومجادلتهم حجة بحجة قبل استفحال أمرهم وما كان منهم بالأمس القريب ليس بخاف على أحد .

● وأخيراً وخلاصة ما يقال بشأن أقرب النظم الحزبية الملائمة لوضع المسلمين الراهن والأقرب إلى روح الشريعة ونصوصها ..

وإذا أردنا وضع النقط على الحروف وعلى سبيل المثال ، وليس على سبيل الحصر يمكننا أن نقول ومن حقنا أن نبرز بعض النقاط التى أهمها :

(أولا) هناك أحزاب سياسية مرفوضة شكلا وموضوعاً من الشريعة الإسلامية وأهمها بيننا الآن الأحزاب الشيوعية القائمة والمنتشرة فى شتى بلاد المسلمين كأندونسيا وسوريا والعراق وفى مصر : « حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى » ، ولا يحتج أصحابه بالقول بأنهم مسلمون إسماً وشكلا لأن ممن تضمهم لائحة الحزب رسمياً بجوار اليساريين والناصريين وباللفظ الواحد المحدد الماركسيين والماركسى ملحد لا خلاف .

والقول فى رفض الشريعة للمذاهب الماركسية ليس محل جدل ، فلا اجتهاد مع النص ولا اجتهاد فى حد من حدود الله .

وإذا فات المسلمين تقصيراً أو غفلة إقامة الحد فلا يفوتهم بحال من الأحوال إباحة الجرم !!

وإذا فات المسلمين تقصيراً وغفلة إقامة حد الزنا ، فلا يقال فى ظل شريعة الإسلام بإباحة البغاء رسمياً بأى حال .

ولا يرد أصحاب العقيدة الماركسية بحقهم فى كفالة حرية الرأى والعقيدة لأن الحرية التى تمنح للأفراد والجماعات فى كل الدنيا مقيدة وباعتراف جميع الفلاسفة بعدم إلحاق الأذى بالآخرين وبالإلتزام بالنظام العام كما سبق وذكرنا

والنظام العام لدولة إسلامية موحدة يرفض الشرك شكلا وموضوعاً ، وأى أذى يلحق بالمسلم الغيور على دينه أكثر مرارة من تعطيل حد من حدود الله ومنح الشرعية لحزب ملحد تحت راية الإسلام ؟ !

وهل تمنح بلاد العقيدة الشيوعية الشرعية لحزب آخر غير الحزب الشيوعى ؟!

والله الله فى دينكم يا شعوب المسلمين حكاماً ومحكومين — وكلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته — ووالله إنها لأمانة ويوم القيامة خزى وندامة .

(ثانياً) هناك أحزاب سياسية محل اجتهاد ونظر من وجهة نظر الشريعة الإسلامية ، وكان أهمها فى النصف الأول من القرن العشرين الأحزاب الرأسمالية الليبرالية التى أوشكت على الإنقراض وحلت محلها وأخذت مكانها فى النصف الثانى من القرن العشرين الأحزاب الإشتراكية القومية وأهمها فى المنطقة حزب مصر العربى الإشتراكى وحزب البعث العربى الإشتراكى والاتحاد الإشتراكى السودانى والحزب الديموقراطى الكردستانى وحزب جبهة التحرير الوطنى الجزائرى وظهر على المسرح مؤخراً حزب الوفد المصرى القديم باسم الوفد الجديد بعد ما أثر على نفسه وفى برنامجه باتجاه اشتراكى يمينى .

وهذه الأحزاب فى برامجها وتخطيطها الكثير مما يجب إعادة النظر فيه ومراجعته على أصول الشريعة المتفق عليها وهى أمانة يسأل عليها أمام الله يوم العرض عليه قيادات هذه الأحزاب وحكام المسلمين وكبار رجال الدين .

على هذه الأحزاب الإشتراكية القومية أن تراجع نفسها قومياً واقتصاديا وسياسياً . وعليها أن تسأل نفسها قومياً : ماذا أفادت المنطقة بإثارة النعرة القومية والجاهلية القبلية غير الفرقة والتشتت والخصام ما بين طورانية يدعو لها حزب الشعب التركى وكردية يدعو لها الحزب الديموقراطى الكردستانى وعربية بقيادة حزب البعث العربى .

وأين تركيا الآن سياسياً وعالمياً مما كانت عليه فى عز الخلافة ورغم فساد بعض الخلفاء .

وماذا قدمت الأحزاب القومية لقضية المسجد الأقصى وماذا صنعت على طريق الوحدة الإسلامية ؟

كما أن على دعاة الفكر القومى قبل فوات العمر والأوان أن يدركوا ما لكبار الأئمة والمجتهدين من رأى لشريعة الإنسانية والخلود حول قضية القومية

وإقتصاديا : على قيادات هذه الأحزاب الإشتراكية أن تسأل نفسها بأمانة هل حلت مشاكل إقتصاد بلاد المسلمين وحققت المكاسب التى انتظرتها منهم شعوب هذه البلاد . لقد سلم من اعتبر . والرجوع إلى الحق فضيلة وهذا هو أول رائد للحركة الاشتراكية فى مصر زعيم حزب مصر الفتاة ومؤسس الحزب الإشتراكى القديم أحمد حسين بعد خبرته المديدة ، وفى نهاية المطاف لرحلة كفاحه يقول وقد صدق : « إذا كانت الأعمار بيد الله وأن لكل أجل كتاب فالشىء المحقق أننى فى أخريات حياتى ، وقد كانت حياتى كلها من أجل مصر ومجدها وشعب مصر وخيره ولقد دعوت للإشتراكية عندما تصورت أنها قد تكون علاجاً لما نشكو منه ، واليوم وبعد أن قمنا بالتجربة فساءت أحوالنا إلى القدر الذى يشكو منه الشباب ، فإن واجبى أن أعلنها عالية : أن الإشتراكية هى التى انتهت بنا إلى ما انتهينا إليه فلنرفعها عالية : « إسلامية لا شيوعية ولا إشتراكية » .

وسياسياً : على هذه الأحزاب الإشتراكية القومية أن تسأل نفسها : لم تكيل بمكيالين ولا تلتزم بشرف الديموقراطية السياسية ، ولم لا تسمح بصراع حزبى عادل فتقبل فى شجاعة منافسة شرعية وشريفة مع الأحزاب الأخرى وخاصة إذا كانت هذه الأحزاب الأخرى أحزاباً دينية وفى بلاد دينها الرسمى الإسلام ، وهل يرضى الله أن يمنح قانون الأحزاب الجديد فى مصر الشرعية للملحد ويبخل بها على مؤمن؟

إن تركيا رغم ما لاقته من دكتاتورية أتاتورك وعلمانيته الدستورية الفجة سمحت أخيراً بإقامة حزب إسلامى هو حزب سلامة .

على الأحزاب الإشتراكية القومية فى المنطقة أن تراجع نفسها قوميا وإقتصاديا وسياسياً ولا نقول تصفى نفسها فالحكم الأول والأخير للتاريخ ولجماهير الشعوب العريضة على أن تمنح الفرص للجميع وبالعدل دون تحيز وبما يتفق والنظام العام لبلد دينه الرسمى الإسلام .

(ثالثاً) هناك أحزاب مقبولة ومطالب بها من وجهة نظر الشريعة وأهمها حاليا حزب جماعة الإخوان المسلمين فى مصر ، وحزب الجماعة الإسلامية فى الباكستان وحزب سلامة التركى .

وعلى هذه الأحزاب أن تدرك مدى أعباء المسئولية الملقاة على عاتقها ، والأمانة التى حملت الحساب عليها وعليها أن تتحدث مع العالم بلغته التى يفهمها . . وتدرك أن عن الخلافة ووحدة المسلمين وأمجاد السلف لا تدرك اليوم إلا بنضال حزب وليس بأسنة الرماح والسيوف ذلك داخلياً .

وأن لغة العالم اليوم فى حركته السياسية هى لغة الأحزاب إئتلافاً وإنشقاقاً . وما عليها إلا أن يتصل بعضها ببعض وإذا اتحدت الأهداف والبرامج وتوحدت الكلمة وخلصت النية ، ربما أطلق عليها فى المستقبل اسم حزب واحد يقود الخلف لأمجاد السلف ويعيد للمسلمين أمجادهم ووحدتهم وللخلافة عزها وعظمتها .

فقط عليهم جميعا متكاتفين أن يدركوا أهمية الدور السياسى الجديد الذى تؤديه حديثاً نظرية الحزب وتستمر رحلة كفاحهم المشرف المستميت فى سبيل أبسط الحقوق السياسية الشرعية . . وهو أن يكون لهم كغيرهم حزب .

ولا تقول جماعة منهم وهذا هو الغريب العجيب لا بل لسنا حزبا وعلى الجميع أن ينفضوا ويتركوا المجال لنا وحدنا فنحن الأوصياء على دين الله وندخل فى متاهات تجر معها شباب المسلمين إلى عالم اللامفهوم ، ويتهم المخلصون من الدعاة بالهروب من ساحة الميدان ، ميدان المنافسة الحزبية الشرعية وهم فرسانها خطابة وفكراً وقيادة وتنظيما وتضحية وإستماتة دون الحق يعلم الله .

* * *

الخـــاتمة

خاتمة ما يقال فى هذا المجال عود على بدء ورجاء تلو رجاء لفقهائنا الأجلاء من رجال الدين وعلمائنا الكبار من أساتذة القانون العام ولقادة الأحزاب السياسية الصابرين الشرفاء أن تتكاتف جهودهم لكشف الغموض والبحث والتجديد والرد على كل ما يثار من أسئلة واستفسارات غامضة وحائرة حول مشاكل الفكر السياسى الإسلامى فى ظروفنا الحاضرة وفى مقدمتها قضية الأحزاب السياسية وموقف الشريعة الإسلامية منها .

ولا شك أن وضوح الرؤية حول مشاكل السياسة ونظام الحكم من مصلحة الدين بالضرورة والأولوية عن غيرها من مشاكل الفروع الأخرى . وكان خليفة المسلمين الثالث سيدنا عثمان بن عفان يردد :

« إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

فقط نستسمح أساتذة القانون العام فى بلادنا فى القول لهم بكل صراحة إن دورهم لا ينتهى بحال من الأحوال عند مجرد تشخيص الداء دون البحث فى نوع الدواء .

والقول بأن الفقه الإسلامى فى مجال القانون العام لا يزال فى دور الطفولة لا يكفى ولا يجدر بهم من موقع المسئولية العلمية فعليهم مع تشخيص الداء البحث فى أساسه والاستمرار فى محاولة وصف الدواء حتى يشتد عود هذا العليل ويمكنهم الصعود به من مرحلة الطفولة إلى النضج التام .

كما نرجو من أئمة الفقهاء من رجال الدين وهم فى موقع التشبث بالنص مراعاة أمر هام تفرضه طبيعة العصر ولا ترفضه روح النص .

ذلك أن البشرية فى كفاحها الطويل عبر القرون تقدمت فى مجالات كثيرة من مجالات المعرفة فى شتى الفروع والتخصصات . ساهم الجميع فى ذلك دون التمييز بينهم من حيث الجنس أو اللون أو العقيدة .

وما ثبت نفعه للبشرية جمعاء وما يخفف عن الإنسانية معاناتها وآلامها دون جلب الضرر أو التورط فى معصية تغضب الله لا يختلف اثنان على أن دين الفطرة والعقل وشريعة الخلود تقبله ولا ترفضه . ودستورها الإلهى يقول :

« وما جعل عليكم فى الدين من حرج » (الحج آية ٧٨)

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (البقرة : ١٨٥)

ومن قواعدها الكلية الجامعة المانعة :

« لا ضرر ولا ضرار » .

وبلغة العصر وفى مجال علم الاقتصاد مثلا لا يقول اليوم مسلم عاقل راشد إن النظام النقدى والبنوك حرام . فالنظام النقدى خفف عن البشرية الكثير وسهل عمليات حسابها وحفظ أماناتها والحلال والحرام إنما يقال عن نوع العملية المالية التى يستخدم فيها النظام النقدى فهو حرام إذا استخدم فى تسهيل عمليات الحساب القائمة على الربا حلال إذا استخدم فى حساب موارد الزكاة ومصارفها وكذلك لا يجدر بنا كعقلاء أن نتساءل فيما إذا كان علم المحاسبة حلال أو حرام وإن أخذناه عن الغرب وكان صاحب الفضل فى اكتشافه راهب إيطالى من الفرنسيسكان يدعى لوكا باسيولى فالنظام المحاسبى فن من فنون المعرفة لتبويب وتسجيل وتحليل وتسهيل عرض الحقائق المالية .

ولا يقال فى أمره أحلال أم حرام ؟! إنما يدور الحلال والحرام حول نوعية العمليات التى يستخدم فيها علم المحاسبة فيما إذا كانت لحساب ميزانية مصنع للخمور . . أم لحساب ميزانية مصنع للدواء .

وقياسا على ذلك كله وفى مجال السياسة لا يقال فى شأن النظام الحزبى حلال أم حرام ؟ وإنما الحلال والحرام يدور على نوعية الأحزاب التى يصرح بها شكلا وموضوعا عقيدة وتنظيما وكما يقام حزب يدعو للمادية والإلحاد من الممكن قيام حزب يدعو للتوحيد ونشر دين الله .

والنظام الحزبى الحديث فن من فنون السياسة له دراساته الحديثة الجادة وله

رواده من أمثال أدموند بيرك وأعلامه من أمثال موريس ديفرجيه ويعود للنظام الحزبى فضل استقرار الحياة السياسية فى معظم الشعوب الحرة ويحقق سبل انتقال السلطة بيسر وبأقل التضحيات ولنا أن نشارك البشرية الاستفادة من هذا النظام وألا نحرم خيره على أن نتقى شره فى نفس الوقت فلا يقال به إلا فيما هو مباح من وجهة نظر الشريعة . أما النظام نفسه كنظام فلا يقال فيه حلال أو حرام ولرواد الحركات السياسية الإسلامية الصابرين الأبرار ولزعماء الأحزاب السياسية الشرفاء نسأل الله التوفيق والهداية والاستفادة من كل ما فيه عبرة وخبرة من أحداث الماضى البعيد والقريب وأن نشفق على شعوب بلادنا تخلفها السياسى ، ونشفق على حركاتنا الجادة توالى المحن عليها فنأخذ بأساليب العصر المتفقة مع رخص الله فإن الله يحب أن تؤتى رخصه . .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

° * °

الفهـــرس

رقم الإيداع ٢٢٨٠ لسنة ١٩٧٨

الترقيم الدولى ٩٧٧

مطبعة الفجالة الجديدة
محمد محمد عبد الرحمن السنوسي
٥٠ حارة الجامع بحارة اليهود بالموسكى

تحت الطبع للمؤلف

الأحزاب السياسية

والفصل بين الدين والسياسة.

مكتب قليوب

للطبع والنشر

تليفون ٩٥٦٤٨٨